مسألة بناء الكعبة ودعوة إبراهيم (ع) وإسماعيل للنبي (ص)

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

أما تفسيرها بحسب:

- ابن كثير:

﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ

أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

قال الحسن البصري: قوله تعالى: ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ ﴾: أمرهما الله أن يطهراه من الأذى والنَّجَس ولا يصيبه من ذلك شيء.

وقال ابن جريج: قلت لعطاء: ما عهده؟ قال: أمره.

والظاهر أن هذا الحرف إنما عُدِّيَ بإلى، لأنه في معنى أوحينا ، قوله: ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ ﴾ قال: من الأوثان والرفث وقول الزور والرجس.

قال مجاهد وعطاء وقتادة: ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ ﴾أي: بلا إله إلاَّ الله، من الشرك، وأما قوله تعالى: ﴿ لِلطَّآئِفِينَ ﴾ فالطواف بالبيت معروف. وعن سعيد بن جبير أنه قال: ﴿ لِلطَّآئِفِينَ ﴾ يعني: من أتاه من غُرْبة، ﴿ وَٱلْعَٰكِفِينَ ﴾ المقيمين فيه. وهكذا روي عن قتادة، والربيع بن أنس: أنهما فسرا العاكفين بأهله المقيمين فيه. وعن ابن عباس قال: إذا كان جالسًا فهو من العاكفين. وعن ثابت قال: قلنا لعبد الله بن عبيد بن عمير: ما أراني إلاَّ مُكَلِّم الأمير أن أمنع الذين ينامون في المسجد الحرام فإنهم يجنبون ويُحدثون، قال: لا تفعل، فإن ابن عمر سئل عنهم، فقال: هم العاكفون.

قلت: وقد ثبت في الصحيح أنّ ابن عمرَ كان ينام في مسجد الرسول (ص) وهو عَزَب، وأما قوله تعالى: ﴿ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ فقال عطاء عن ابن عباس إذا كان مصليًا فهو من الركع السجود.

وقال ابن جَرير: فمعنى الآية: وأمَرْنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتي للطائفين. والتطهير الذي أمرهما به في البيت هو تطهيرُه من الأصنام وعبادة الأوثان فيه ومن الشرك، فإن قيل: فهل كان قبل بناء إبراهيم عند البيت شيء من ذلك الذي أمر بتطهيره منه؟ فالجواب من وجهين: أحدهما: أنه أمرهما بتطهيره مما كان يعبد عنده زَمَان قوم نوح من الأصنام والأوثان ليكون ذلك سُنَّة لمن بعدهما إذ كان الله تعالى قد جعل إبراهيم إمامًا يقتدى.

قلت: وهذا الجواب مُفَرَّع على أنه كان يُعْبَدُ عنده أصنام قبل إبراهيم (ع) ويحتاج إثبات هذا إلى دليل عن المعصوم مُحَمَّد (ص).

الثاني: أنه أمرهما أن يخلصا في بنائه لله وحده لا شريك له، فيبنياه مطهرًا من الشرك والرَّيْب، كما قال جل ثناؤه: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ﴾التوبة: ١٠٩قال: فكذلك قوله: ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ ﴾ أي: ابنيا بيتي على طهر من الشرك بي والريب، وملخص هذا الجواب: أن الله تعالى أمر إبراهيم وإسماعيل (ع) أن يبنيا الكعبة على اسمه وحده لا شريك له للطائفين به والعاكفين عنده، والمصلين إليه من الركع السجود، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾الحج : ٢٦ ، وقد اختلف الفقهاء أيما أفضل الصلاة عند البيت أو الطواف؟ فقال مالك الطواف به لأهل الأمصار أفضل وقال الجمهور: الصلاة أفضل مطلقاً، وتوجيه كل منهما يذكر في كتاب الأحكام.

والمراد من ذلك الرد على المشركين الذين كانوا يشركون بالله عند بيته، المؤسس على عبادته وحده لا شريك له، ثم مع ذلك يصدون أهله المؤمنين عنه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ الحج: ٢٥ .

ثم ذكر أن البيت إنما أسس لمن يعبد الله وحده لا شريك له، إما بطواف أو صلاة، فذكر في سورة الحج أجزاءها الثلاثة: (قيامها، وركوعها، وسجودها)، ولم يذكر العاكفين لأنه تقدم ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ وفي هذه الآية الكريمة ذكر الطائفين والعاكفين، واكتفى بذكر الركوع والسجود عن القيام؛ لأنه قد علم أنه لا يكون ركوع ولا سجود إلاَّ بعد قيام. وفي ذلك -أيضًا-رَدّ على من لا يحجه من أهل الكتابين: اليهود والنصارى؛ لأنهم يعتقدون فضيلة إبراهيم واسماعيل ويعلمون أنه بنى هذا البيت للطواف في الحج والعمرة وهم لا يفعلون شيئًا من ذلك، فكيف يكونون مقتدين بالخليل، وهم لا يفعلون ما شرع الله له؟ وقد حَجَّ البيتَ موسى بن عمران، وغيره

من الأنبياء (ع)، كما أخبر بذلك المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ النجم: ٤.

وتقدير الكلام إذًا: ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ ﴾ ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ البقرة: ١٢٥ أي: طهراه من الشرك والريب وابنياه خالصًا لله، معقلاً للطائفين والعاكفين والركع السجود. وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية الكريمة ومن قوله تعالى: ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴾ النور: ٣٦ ، ومن السنة من أحاديث كثيرة، من الأمر بتطهيرها وتطييبها وغير ذلك، من صيانتها من الأذى والنجاسات وما أشبه ذلك. ولهذا قال (ع): ((إنما بنيت المساجد لما بنيت له)) . وقد جَمَعْتُ في ذلك جزءًا على حدة ولله الحمد والمنة.

وقد اختلف الناس في أول من بنى الكعبة؟ فقيل: الملائكة قبل آدم ذكره القرطبي وحكى لفظه، وفيه غرابة، وقيل: آدم (ع) رواه عطاء وسعيد بن المسيب وهذا غريب أيضًا.

وروي عن ابن عباس وكعب الأحبار أن أول من بناه شيث(ع) وغالب من يذكر هذا إنما يأخذه من كتب أهل الكتاب، وهي مما لا يصدق ولا يكذب ولا يعتمد عليها بمجردها. وأما إذا صح حديث في ذلك فعلى الرأس والعين.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾

قال بن جرير عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله (ص): ((إِنْ إبراهيم حَرَّم بيت الله وأَمَّنَه وإني حرمت المدينة ما بين لابتيها فلا يُصَادُ صيدها ولا يقطع عضاهها)) .

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ص): كان الناس إذا رأوا أول الثمر، جاؤوا به إلى رسول الله (ص)، فإذا أخذه رسول الله (ص) قال: ((اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك

لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مُدِّنا، اللهم إن إبراهيمَ عبدُك وخليلك ونبيك، وإني عبدك ونبيك وإنه دعاك لمكة وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه)) ثم يدعو أصْغَرَ وليد له، فيعطيه ذلك الثمر.

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله (ص) لأبي طلحة: ((التمس لي غلامًا من غلمانكم يخدمني)) فخرج بي أبو طلحة يردفني وراءه، فكنت أخدم رسول الله (ص) كلما نزل. وقال في الحديث: ثم أقْبَلَ حتى إذا بدا له أُحد قال: ((هذا جبل يُحبُّنا ونحبه)). فلما أشرف على المدينة قال: ((اللهم إني أحرم ما بين جبليها، مثلما حرم به إبراهيم مكة، اللهم بارك لهم في مُدِّهم وصاعهم)). وفي لفظ لهما: ((اللهم بارك لهم في مكيالهم، وبارك لهم في صاعهم، وبارك لهم في مدهم)). زاد البخاري: يعني: أهل المدينة.

وعن أنس أن رسول الله (ص) قال: ((اللهم اجعل بالمدينة ضِعْفَي ما جعلته بمكة من البركة)).

وعن أبي سعيد، عن النبي (ص) قال: ((اللهم إنَّ إبراهيم حَرَّم مكة فجعلها حرامًا، وإني حرمت المدينة حرامًا ما بين مأزميها، لا يهراق فيها دم، ولا يحمل فيها سلاح لقتال، ولا يخبط فيها شجرة إلا لعلف. اللهم بارك لنا في مدينتنا، اللهم بارك لنا في صاعنا، اللهم بارك لنا في مُدِّنا، اللهم اجعل مع البركة بركتين)) ، والأحاديث في تحريم المدينة كثيرة، وإنما أوردنا منها ما هو متعلق بتحريم إبراهيم (ع) لمكة، لما في ذلك في مطابقة الآية الكريمة، وتَمسَّك بها من ذهب إلى أن تحريم مكة إنما كان على لسان إبراهيم الخليل، وقيل: إنها محرمة منذ خلقت مع الأرض وهذا أظهر وأقوى والله العالم .

وقد وردت أحاديث أخَرى تدل على أن الله تعالى حرم مكة قبل خلق السموات والأرض، كما جاء في الصحيحين، عن عبد الله بن عباس، قال: قال رسول الله (ص) يوم فتح مكة: ((إن هذا البلد حَرَّمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة. وإنه لم يحِل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلاَّ ساعة

من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة. لا يُعْضَد شوكه ولا ينفر صيده، ولا تُلْتَقط لُقَطتُه إلاَّ من عرَّفها، ولا يختلى خَلاهَا)، فقال العباس: يا رسول الله، إلاَّ الإذْخَر فإنه لقَينهم ولبيوتهم. فقال: (إلاَّ الإذخر).

وعن أبي شُرَيح العدوي أنَّه قال لعَمْرو بن سعيد -وهو يبعث البعوث إلى مكة -: ائذن لي -أيها الأمير -أن أحدثَك قولاً قام به رسولُ الله (ص) الغَد من يوم الفتح، سَمِعَته أذناي ووعاه قلبي، وأبصرته عيناي حين تَكَلَّم به، إنه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ((إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد تَرَخَّصَ بقتال رسول الله (ص) فقولوا: إن الله أذن لرسوله (ص) ولم يأذن لكم. وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب)). فقيل لأبي شُرَيح: ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لا يعيذ عاصيًا، ولا فارًّا بدم، ولا فارًّا بخَرَبَة.

فإذا علم هذا فلا منافاة بين هذه الأحاديث الدالة على أن الله حَرَّم مكة يوم خلق السموات والأرض، وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم (ع)، حَرَّمها؛ لأن إبراهيم بَلَّغ عن الله حُكْمه فيها وتحريمه إياها، وأنها لم تزل بلدًا حرامًا عند الله قبل بناء إبراهيم، (ع) لها، كما أنه قد كان رسول الله (ص) مكتوبًا عند الله خاتم النبيين، وإن آدم لمنجَدل في طينته، ومع هذا قال إبراهيم، (ع) : ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ ﴾، وقد أجاب الله دعاءه بما سبق في علمه وقَدَره.

وأما مسألة تفضيل مَكَّة على المدينة، كما هو قول الجمهور، أو المدينة على مكة، كما هو مذهب مالك وأتباعه، فتذكر في موضع آخر بأدلتها، إن شاء الله، وبه الثقة.

وقوله: تعالى إخبارًا عن الخليل أنه قال: ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا ﴾البقرة: ١٢٦ أي: من الخوف، لا يَرْعَبُ أهله، وقد فعل الله ذلك شرعًا وقدرًا. كقوله تعالى :﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗا ﴾آل عمران: ٩٧ ، وقوله : ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡ ﴾العنكبوت: ٦٧، إلى غير ذلك من الآيات. وقد تقدمت الأحاديث في

تحريم القتال فيها. وفي صحيح مسلم عن جابر: سمعت رسول الله (ص) يقول: ((لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح)) . وقال في هذه السورة: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ أي: اجعل هذه البقعة بلدًا آمنًا، وناسب هذا؛ لأنه قبل بناء الكعبة. وقال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾إبراهيم: ٣٥، وناسب هذا هناك لأنه، والله أعلم، كأنه وقع دعاء ثانية بعد بناء البيت واستقرار أهله به، وبعد مولد إسحاق الذي هو أصغر سنًّا من إسماعيل بثلاث عشرة سنة؛ ولهذا قال في آخر الدعاء: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾إبراهيم: ٣٩. وقوله تعالى: ﴿ وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾. وقال أبو جعفر الرازي، عن أبي بن كعب: ﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ فجعلوا ذلك من تمام دعاء إبراهيم. قال ابن عباس: كان إبراهيم يحجُرها على المؤمنين دون الناس، فأنزل الله ومن كفر أيضًا أرزقهم كما أرزق المؤمنين أأخلق خلقًا لا أرزقهم؟! أمتعهم قليلاً ثم أضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصير. ثم قرأ ابن عباس:﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾الإسراء: ٢٠ . وهذا كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾يونس: ٦٩ - ٧٠، وكقوله تعالى:﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾لقمان: ٢٤ ، وقوله: ﴿ ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي: ثم ألجئه بعد متاعه في الدنيا وبسطنا عليه من ظلها ﴿ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ ومعناه: أن الله تعالى ينظر اليهم ويمهلهم ثم ياخذون اخذ عزيز مقتدر كقوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا ۖ وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾الحج: ٤٨ ، وفي الصحيح: ((إنْ الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته). ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾هود: ١٠٢ .

وأما قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ .

فالقواعد: جمع قاعدة، وهي السارية والأساس، يقول تعالى: واذكر -يا محمد -لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل (ع) البيت، ورفْعَهما القواعدَ منه، وهما يقولان: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فهما في عمل صالح، وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما، وقال بعض المفسرين: الذي كان يرفع القواعد هو إبراهيم، والداعي إسماعيل. والصحيح أنهما كانا يرفعان ويقولان، كما سيأتي بيانه.

وقد روى البخاري عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، قال: أول ما اتخذ النساء المنْطَق من قبَل أم إسماعيل، اتخذت منطقًا ليعفي أثرها على سارة. ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زَمْزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر وسِقَاء فيه ماء، ثم قَفَّى إبراهيم منطلقًا. فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها. فقالت آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذًا لا يضيعنا. ثم رجعت. فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات، ورفع يديه، قال: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ إبراهيم: ٣٧، وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ماء السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال: يتلبط -فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقربَ جبل في الأرض يليها فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا؟ فلم تر أحدًا. فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طَرْفَ درعها، ثم سعت سَعْيَ الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي. ثم أتت المروة، فقامت عليها ونظرت هل ترى أحَدًا؟ فلم تر أحدًا. ففعلت

ذلك سبع مرات، قال ابن عباس: قال النبي (ص): (فلذلك سعى الناس بينهما)، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا فقالت: صه، تريد نفسها، ثم تَسَمَّعت فسمعَت أيضًا. فقالت: قد أسمعت إِنْ كان عندك غُوَاث فإذا هي بالمَلَك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه -أو قال: بجناحه -حتى ظهر الماء، فجعلت تُحَوِّضُهُ، وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف. قال ابن عباس: قال النبي (ص): ((يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم -أو قال: لو لم تغرف من الماء -لكانت زمزم عينًا مَعينًا)).

قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة؛ فإن ههنا بيتًا لله، عزَّ وجلَّ، يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإِنَّ الله لا يضيع أهله. وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جُرْهُم -أو أهل بيت من جُرْهم -مقبلين من طريق كَدَاء. فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائرًا عائفًا، فقالوا: إِنَّ هذا الطائر ليدور على الماء، لعَهْدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء. فأرسلوا جَرِيًّا أو جَرِيَّين، فإذا هم بالماء. فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا. قال: وأم إسماعيل عند الماء. فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حَقَّ لكم في الماء عندنا، قالوا: نعم.قال ابن عباس فقال النبي (ص): (فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس). فنزلوا، فنزلوا معهم. حتى إِذا كان بها أهل أبيات منهم وشب غلامُ، وتعلم العربية منهم، وأنْفَسَهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم.

قال ابن إسحاق: ثم إن القبائل من قريش جَمَعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها، حتى بلغ البنيان موضع الركن -يعني الحجر الأسود -فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوروا وتخالفوا، وأعدوا للقتال. فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة، فسموا: لعَقَة الدم. فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسًا. ثم إنهم

اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا.

فزعم بعض أهل الرواية: أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عُمَر بن مخزوم -وكان عامئذ أسن قريش كلهم -قال : يا معشر قريش، اجعلوا بينكم في ما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد، يقضي بينكم، فيه. ففعلوا، فكان أول داخل رسول الله (ص)، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا... هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال (ص) : ((هَلُمَّ إليَّ بثوب فأتي به، فأخذ الركن -يعني الحجر الأسود-فوضعه فيه بيده، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم قال: (ارفعوه جميعاً ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده (ص)، ثم بنى عليه)). وكانت قريش تسمي رسول الله (ص) قبل أن ينزل عليه الوحي: الأمين.

قال ابن إسحاق: وكانت الكعبة على عهد النبي (ص) ثمانية عشر ذراعًا، وكانت تكسى القباطي، ثم كُسِيت بعدُ البُرود، وأول من كساها الديباج الحجاج بن يوسف.

(قلت): ولم تزل على بناء قريش حتى أحرقت في أول إمارة عبد الله بن الزبير بعد سنة ستين. وفي آخر ولاية يزيد بن معاوية، لما حاصروا ابن الزبير، فحينئذ نقضها ابن الزبير إلى الأرض وبناها على قواعد إبراهيم، (ع)، وأدخل فيها الحجر وجعل لها بابًا شرقيًّا وبابًا غربيًّا ملصقين بالأرض، كما سمع ذلك من خالته عائشة أم المؤمنين عن رسول الله (ص). ولم تزل كذلك مُدَّة إمارته حتى قتله الحجاج، فردها إلى ما كانت عليه بأمر عبد الملك بن مَرْوان له بذلك، كما قال مسلم بن عن عطاء: (لما احترق البيت زَمَنَ (يزيد بن معاوية) حين غزاها أهل الشام، وكان من أمره ما كان، تركه ابن الزبير حتى قدم الناس الموسمَ يريد أن يُجَرِّئَهم -أو يُحزبهم -على أهل الشام، فلما صدر الناس قال: يا أيها الناس، أشيروا عليَّ في الكعبة، أنقضها ثم أبني بناءها أو أصلح ما وَهَى منها؟ قال ابن عباس: انه قدخرق لي رأي فيها، أرى أن تُصْلِحَ ما وَهى منها، وتدع بيتًا أسلم الناس عليه وأحجارًا أسلم الناس عليها، وبعث عليها النبي (ص). فقال ابن الزبير: لو كان أحدهم احترق بيته ما رضي حتى يجدده، فكيف بيت ربكم، عزَّ وجلَّ؛ إني مستخير ربي ثلاثًا ثم عازم على أمري. فلما مضَت

ثلاث أجمع رأيه على أن ينقضها. فتحاماها الناسُ أن ينزل بأول الناس يصعد فيه أمْر من السماء، حتى صعده رجل، فألقى منه حجارة، فلما لم يَره الناس أصابه شيء تتابعوا، فنقضوه حتى بلغوا به الأرض. فجعل ابن الزبير أعمدة يستر عليها الستور، حتى ارتفع بناؤه. وقال ابن الزبير: إني سمعت عائشة، تقول: إنَّ النبي (ص)، قال: ((لولا أن الناس حديث عهدُهم بكفر، وليس عندي من النفقة ما يُقَوِّيني على بنائه، لكنت أدخلت فيه من الحجر خمسة أذرع، ولجعلت له بابًا يدخل الناس منه، وبابًا يخرجون منه)). قال: فأنا أجد ما أنفق، ولست أخاف الناس. قال: فزاد فيه خمسة أذرع من الحجر، حتى أبدى له أساً فنَظَر الناس إليه فبنى عليه البناء. وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعًا، فلما زاد فيه استقصره فزاد في طوله عشرة أذرع، وجعل له بابين: أحدهما يدخل منه، والآخر يخرج منه. فلما قُتِل ابنُ الزبير كتب الحجَّاج إلى عبد الملك يخبره بذلك، ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أس نظر إليه العدول من أهل مكة، فكتب إليه عبد الملك: إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير في شيء، أما ما زاده في طوله فأقره. وأما ما زاد فيه من الحجر فرده إلى بنائه، وسد الباب الذي فتحه. فنقضه وأعاده إلى بنائه)) .

وقد كانَت السنة إقرار ما فعله عبد الله بن الزبير؛ لأنه هو الذي وَدَّه رسول الله (ص). ولكن خشي أن تنكره قلوب بعض الناس لحداثة عهدهم بالإسلام وقربِ عهدهم من الكفر. ولكن خفيت هذه السُّنةُ على (عبد الملك بن مروان) ولهذا لما تحقق ذلك عن عائشة أنها روت ذلك عن رسول الله (ص) قال: وددنا أنا تركناه وما تولى. فدل هذا على صواب ما فعله ابن الزبير، فلو ترك لكان جيداً .

ولكن بعد ما رجع الأمر إلى هذا الحال، فقد كَرِه بعض العلماء أن يغير عن حاله، كما ذكر عن أمير المؤمنين هارون الرشيد -أو أبيه المهدي -أنه سأل الإمام مالكًا عن هدم الكعبة وردِّها إلى ما فعله ابن الزبير. فقال له مالك: يا أمير المؤمنين، لا تجعل كعبة الله مَلْعَبَة للملوك، لا يشاء أحد أن يهدمها إلاَّ هدمها. فترك ذلك الرشيد.

نقله عياض والنواوي، ولا تزال -والله أعلم -هكذا إلى آخر الزمان، إلى أن يخرِّبَها

ذو السويقتين من الحبشة، كما ثبت ذلك في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ص) : ((يخرب الكعبة ذو السُّوَيقتين من الحبشة)).

وعن بن عباس، عن النبي (ص) قال: ((كأني به أسودَ أفحَجَ، يقلعها حجرًا حجرًا)). وعن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله (ص) يقول: ((يُخَرِّب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة، ويسلبها حلْيتها، ويجردها من كسوتها. ولكأني أنظر إليه أصيلع أفَيْدعَ يضرب عليها بِمِسْحَاته ومِعْوله)) .

وهذا -والله أعلم -إنما يكون بعد خروج يأجوج ومأجوج، لما جاء في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله (ص): ((ليُحَجَّنَّ البيتُ وليُعْتَمَرَنَّ بعد خروج يأجوج ومأجوج)) .

وقوله تعالى حكاية لدعاء إبراهيم وإسماعيل، (ع) : ﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾. قال ابن جرير: يعنيان بذلك، واجعلنا مستسلمين لأمرك، خاضعين لطاعتك، لا نشرك معك في الطاعة أحدًا سواك، ولا في العبادة غيرك. وقال عكرمة: ﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ ﴾ قال الله: قد فعلت. ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ ﴾ قال الله: قد فعلت. وقال السدي:﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ ﴾ يعنيان العرب. قال ابن جرير: والصواب أنه يعمُّ العرب وغيرهم؛ لأن من ذرية إبراهيم بني إسرائيل، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴾الأعراف: ١٥٩.

قلت: وهذا الذي قاله ابن جرير لا ينفيه السدي؛ فإن تخصيصهم بذلك لا ينفي من عداهم، والسياق إنما هو في العرب؛ ولهذا قال بعده: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡ ﴾ الآية. والمراد بذلك محمَّد (ص)، وقد بعث فيهم كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ ﴾الجمعة: ٢ومع هذا لا ينفي رسالته إلى الأحمر والأسود، لقوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾الأعراف: ١٥٨، وغير ذلك من الأدلة القاطعة،

وهذا الدعاء من إبراهيم وإسماعيل، (ع)، كما أخبر الله تعالى عن عباده المتقين المؤمنين، في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾الفرقان: ٧٤ .

وهذا القدر مرغوب فيه شرعًا، فإن من تمام محبة عبادة الله تعالى أن يحب أن يكون من صلبه من يعبد الله وحده لا شريك له؛ ولهذا لما قال الله تعالى لإبراهيم، (ع): ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ قال:﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وهو قوله: ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾إبراهيم: ٣٥ . وقد ثبت عن النبي (ص) أنه قال: ((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاَّ من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)).

﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ قال عطاء: أخرجها لنا،عَلِّمْنَاها .

وقال مجاهد ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ مذابحنا. وقال أبو داود الطيالسي عن أبي الطفيل، عن ابن عباس، قال: ((إنَّ إبراهيم لما أريَ أوامر المناسك، عرض له الشيطان عند المسعى، فسابقه إبراهيم، ثم انطلق به جبريل حتى أتى به منى، فقال: مُنَاخ الناس هذا. فلما انتهى إلى جمرة العقبة تعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم أتى به الجمرة الوسطى، فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات، حتى ذهب، ثم أتى به الجمرة القصوى، فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، فأتى به جَمْعًا. فقال: هذا المشعر. ثم أتى به عرفة. فقال: هذه عرفة. فقال له جبريل: أعرفت؟)) .

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

يقول تعالى إخبارًا عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث الله فيهم رسولا منهم، أي من ذرية إبراهيم. وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قَدَرَ الله السابق في تعيين محمد (صلوات الله وسلامه عليه) رسولاً في الأميين إليهم، إلى سائر الأعجمين،

من الإنس والجن، كما قال الإمام أحمدعن العرباض بن سارية قال: قال رسول الله (ص) : ((إني عند الله لخاتم النبيين، وإنْ آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك، دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يَرَيْنَ)) .

وقال : أبو أمامة قلت: يا رسول الله، ما كان أول بَدْء أمرك؟ قال: ((دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى بي، ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام)) . والمراد أن أول من نَوّه بذكره وشهره في الناس، إبراهيم (ع). ولم يزل ذكره في الناس مذكورًا مشهورًا سائرًا حتى أفصح باسمه خاتمُ أنبياء بني إسرائيل نسبًا، وهو عيسى ابن مريم (ع) حيث قام في بني إسرائيل خطيبًا، وقال: ﴿ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ ﴾الصف: ٦؛ ولهذا قال في هذا الحديث: (دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى بن مريم).

وقوله: ((ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام)) قيل: كان منامًا رأته حين حملت به، وقَصته على قومها فشاع فيهم واشتهر بينهم، وكان ذلك توطئة، وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه وثبوته ببلاد الشام، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله، وبها ينزل (عيسى ابن مريم) إذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها. ولهذا جاء في الصحيحين: ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك)) . وفي صحيح البخاري: (وهم بالشام) .

قوله: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ ﴾ يعني امة محمد (ص) فقيل له : قد استجيب لك وهو كائن في آخر الزمان، وقوله: ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ يعني القران، ﴿ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ يعني السنة، قاله الحسن وقتادة، وقيل : الفهم في الدين، ولا منافاة.﴿ وَيُزَكِّيهِمۡۚ ﴾ قال ابن عباس:يعني طاعة الله، والإخلاص. وقال محمد بن إسحاق ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ : يعلمهم الخير فيفعلوه، والشر فيتقوه، ويخبرهم برضاه عنهم إذا أطاعوه واستكثروا من طاعته، وتجنبوا ما سخط

من معصيته.

وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: العزيز الذي لا يعجزه شيء، وهو قادر على كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله، فيضع الأشياء في محالها؛ وحكمته وعدله.

الشيخ مغنية:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾

اللغة: البيت بوضعه وإطلاقه يشمل كل بيت، ولكنه أصبح علماً على الكعبة المشرفة، لكثرة استعماله فيها من غير قيد، وناب معناه رجع، ومثابة اسم لمكان الرجوع، والتاء في مثابة للمبالغة، لا للتأنيث، والطواف الدوران، والعكوف والاعتكاف الإقامة على الشيء والملازمة له.

الإعراب: رب منادى مضاف إلى ياء المتكلم، أي يا ربي، وحذف حرف النداء، والياء للتخفيف ووضوح المعنى، وكسرت الباء للدلالة على ياء المتكلم المحذوفة، ومن في قوله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم﴾ بدل بعض من كل وهو أهله.. ومن في قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ يجوز أن يكون محلها النصب على أن تكون مفعولاً لفعل محذوف تقديره قال الله: وارزق أيضاً من كفر، و«فأمتعه» معطوف على الفعل المحذوف، ويجوز أن تكون من هذه مرفوعة بالابتداء، وجملة فأمتعه خبر، وجاز دخول الفاء على الخبر لشبه اسم الموصول باسم الشرط.

المعنى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ وإذ جعلنا عطف على قوله: وإذا ابتلي والمعنى أن الله سبحانه قد جعل بيته مقصداً للناس تؤمه أفواج منهم لأداء المناسك. وبعدها يتفرقون إلى بلادهم ثم يرجع إليه أفواج أخرى، وهكذا دواليك.. وأيضاً جعله آمناً في الآخرة، لأن الإنسان متى بلغه وأدى المناسك رجع إلى نفسه

وانقطع إلى ربه وتاب إليه من ذنوبه، وبهذا يكون البيت وسيلة للخلاص من العذاب والعقاب، كما جعل الله بيته أمناً في الدنيا، لأن ساكنه يأمن على نفسه، ولا يتعرض له أحد بسوء، وقد كان الرجل يرى في الحرم قاتل أبيه، فيتجاهله، وهذه عادة موزونة منذ عهد إسماعيل (ع) إلى يومنا هذا.

﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ واتخذوا بكسر الخاء، وهو أمر بالصلاة في مقام إبراهيم لأن معنى مصلى مكان الصلاة.. وقد أجمع الفقهاء على أنه يستحب الإتيان بركعتي الطواف فيه مع الإمكان، والمفهوم من مقام إبراهيم المقام المعروف الموجود الآن في المسجد، أما قول من قال: إن المراد به المسجد بكامله فيحتاج إلى دليل.

﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ أن في قوله تعالى: (أن طهّرا) مفسرة لعهدنا، فهي بمعنى أي، ولا محل لها من الإعراب والمعنى وصينا إبراهيم وإسماعيل بأن يحترما البيت ويبعدا عنه كل ما لا يليق به من الأصنام والنجاسات والأوساخ واللغو والرفث والفسوق والجدال، ونحو هذه، وأن يأمر الناس بذلك، و(الطائفين) الذين يدورون حول البيت، و(العاكفين) أو المعتكفين من أقاموا في المسجد ولازموه، أو جاوروه للعبادة، و(الركع السجود) هم المصلون، جمع راكع وساجد.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ هذا دعاء ورجاء من إبراهيم إلى الله أن يجعل مكة المكرمة من الأمكنة الآمنة، أي يأمن أهلها من الغزاة والجبابرة، ومن الزلازل والعواصف، ونحو ذلك.. وقال جماعة من المفسرين: إن الله قد استجاب دعاء إبراهيم، حيث لم يقصد أحد مكة بسوء إلا قصم الله ظهره، ومن تعدى عليها لم يطل زمن تعديه.

﴿ وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ لما بنى إبراهيم البيت في أرض مقفرة لا ماء فيها ولا كلأ دعا الله سبحانه لهذه الأرض بالأمن والأمان، وبأن تجبى إليها الأرزاق، ولم يعين نوعها، ولا أرضها، إذ المهم وصول الرزق كيف كان،

ومن أين كان.. وقد استجاب الله دعوة إبراهيم، فجبي الرزق إلى مكة من شتى الأنواع والأقطار، وكانت ممراً للقوافل ومقراً للتجارة.. وإلى هذا أشارت الآية ٥٧ من القصص: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾القصص: ٥٧ وإنما خص إبراهيم طلب الرزق للمؤمنين فقط، لأن الله كان قد أعلمه أن في ذريّته قوماً ظالمين، وأنه سبحانه لا يعهد بالإمامة إلى من ظلم.

﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ أي قال الله لإبراهيم: إني أرزق أيضاً الكافرين، وبالأولى الفاسقين، لأن الرزق شيء، والإمامة شيء آخر، فإن الإمامة سلطة دينية وزمنية، وهذه تستدعي الإيمان والعدالة، بل العصمة: أما الرزق فيكون للبر والفاجر، تماماً كالماء والهواء.. والذنوب والمعاصي لا تأثير لها في الأعمار والأرزاق في هذه الحياة، وإنما يظهر تأثيرها غداً يوم القيامة، حيث يلاقي العصاة جزاء أعمالهم.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

تاريخ الكعبة: اختلف المفسرون والمؤرخون في تاريخ الكعبة: هل كانت قبل إبراهيم (ع) ثم عرض لها الخراب، فجدّدها هو وولده إسماعيل بأمر الله تعالى، أو إن تاريخ بنائها وإنشائها يبتدئ بإبراهيم؟

ذهب أكثر أهل التفسير والتاريخ من المسلمين إلى أنها أسبق بكثير من إبراهيم، وقال البعض بل ولدت الكعبة على يد إبراهيم (ع) وتوقف آخرون، ولم يحكموا بشيء، وقالوا: الله أعلم. ونحن مع هؤلاء.. ذلك أن العقل لا مجال له في هذا الباب سلباً ولا إيجاباً، والطريق إلى معرفته ينحصر بالآثار والحفريات، أو بآية قرآنيّة، أو سنة قطعيّة.

إن الشيء الذي نُسأل عنه، ونطالب به ـ في ما يعود إلى الكعبة ـ هو قصدها للحج

والعمرة من استطاع إلى ذلك سبيلاً، واحترامها وتقديسها، والمحافظة عليها، والذبّ عنها بالنفس والنفيس اقتداء بالرسول الأعظم وأهل بيته (ص)، وأصحابه والتابعين والعلماء وجميع المسلمين.. فإنهم يؤمنون إيماناً لا تشوبه شائبة بأن تعظيم بيت الله تعظيم لله، والحرص عليه حرص على حرمات الله، والذبّ عنه ذبّ عن دين الله.. قال أمير المؤمنين (ع): «فرض الله عليكم حجّ بيته الحرام الذي جعله قبلةً للأنام يردونه وُرود الأنعام، ويألهون ـ أي يفزعون ـ إليه وُلوه الحمام جعله سبحانه علامةً لتواضعهم لعظمته، وإذعانهم لعزّته.. جعله سبحانه للإسلام علماً، وللعائذين حرماً».

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ هذا دعاء من إبراهيم وإسماعيل أن يثيبهما الله على هذا العمل، لأن معنى القبول عند الله هو الثواب على العمل الذي يقبله، كما أن عدم الثواب على العمل معناه رده ورفضه، ولا تفكيك بموجب كرم الله وجوده، وليس من شك أن الله قد قبل دعاءهما، وأجزل لهما الثواب على هذه الطاعة، لأنه هو الذي فتح باب الدعاء، وما كان ليفتح على عبد باب الدعاء، بخاصة المتقي، ويغلق عنه باب الإجابة، كما قال أمير المؤمنين (ع) ﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ ﴾ المسلم والمسلّم، والمستسلم بمعنى واحد، وهو الذي يذعن وينقاد، والمراد به هنا من أخلص لله في عقيدته وأعماله، وليس من شكّ أن السعيد الحميد هو الذي يسلم لله جل وعز جميع أموره وشؤونه.

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ ﴾ وقد استجاب الله دعاءهما، وجعل في ذريتهما ملايين الملايين من المسلمين.

الشيعة وأجداد النبي: اختص الشيعة من دون جميع الطوائف الإسلامية، اختصوا بالقول: إن آباء محمد وأجداده، وأمهاته وجداته كانوا جميعاً موحدين، ما أشرك أحدهم بالله شيئاً وإن محمداً منذ الخليقة كان ينتقل من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام المطهرة حتى ساعة ولادته.

قال شيخ الشيعة الشهير بالمفيد في شرح عقائد الصدوق طبعة ١٣٧١هـ ص

٦٧: «إن آباء النبي (ص) من أبيه إلى آدم كانوا موحّدين على الإيمان بالله، وعليه إجماعنا. قال الله تعالى مخاطباً نبيه محمداً: ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾الشعراء: ٢١٩وقال الرسول الأعظم (ص): ما زلت أتنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهرات، حتى أخرجني الله تعالى في عالمكم هذا.. فدلّ قول النبي على أن آباءه كلهم كانوا مؤمنين، إذ لو كان بعضهم كافراً لما استحق الوصف بالطهارة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ فحكم على الكفار بالنجاسة، فلما قضى رسول الله (ص) بطهارة آبائه كلهم ووصفهم بذلك دلّ على أنهم كانوا مؤمنين».

﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾: أي علمنا مناسك الحج، وغيرها من العبادات.

﴿ وَتُبْ عَلَيْنَا﴾ وليس من الضروري أن يلازم طلب المغفرة وجود الذنب، بخاصة إذا كان الطلب من الأنبياء والأوصياء، لأن هؤلاء الكرام يرون أنفسهم مقصرين في حق الله مهما اجتهدوا في العبادة لله، وأخلصوا لجلاله، لأنهم أدرى الناس بعظمته، وبأن عبادة الإنسان بالغة ما بلغت فلن تفي ببعض الحق لتلك العظمة التي لا بداية لها، ولا نهاية.

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ واستجاب الله هذه الدعوة بخاتم النبيين وسيد المرسلين فلقد جاء في أحاديث السنّة والشيعة أن النبي قال: «أنا دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى». وفي سورة الجمعة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

الجمعة: ٢.

وقال أمير المؤمنين (ع): «بعث الله محمداً (ص) وليس أحد من العرب يقرأ كتاباً ولا يدعي نبوة ولا وحياً».

ـ السيد قطب:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾

هذا البيت الحرام الذي قام سدنته من قريش فروّعوا المؤمنين وآذوهم وفتنوهم عن دينهم حتى هاجروا من جواره، لقد أراده الله مثابة يثوب إليها الناس جميعاً، فلا يروعهم أحد، بل يأمنون فيه على أرواحهم وأموالهم فهو ذاته أمن وطمأنينة وسلام.

ولقد أُمروا أن يتّخذوا من مقام إبراهيم مصلى، ومقام إبراهيم يشير هنا إلى البيت كلّه وهذا ما نختاره في تفسيره فاتخاذ البيت قِبلة للمسلمين هو الأمر الطبيعي، الذي لا يُثير اعتراضاً وهو أولى قبلة يتوجّه إليها المسلمون، ورثة إبراهيم بالإيمان والتوحيد الصحيح، بما أنه بيت الله لا بيت أحد من الناس. وقد عهد الله إلى عبدين من عباده صالحين أن يقوما بتطهيره وإعداده للطائفين والعاكفين والرُّكّع السجود (أي الحجاج الوافدين عليه). وأهله العاكفين فيه والذي يصلون فيه ويركعون ويسجدون، فحتى إبراهيم وإسماعيل لم يكن البيت مُلكاً لهما فيورث بالنسب عنهما، إنما كانا سادنين له بأمر ربهما، لإعداده لقضائه وعباده من المؤمنين.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

ومرة أخرى يؤكد دعاء إبراهيم صفة الأمن للبيت، ومرة أخرى يؤكد معنى الوراثة للفضل والخير أن إبراهيم قد أفاد من عظة ربه له في الأولى، لقد وعى منذ أن قال له ربه لا ينال عهدي الظالمين، وفي دعائه أن يرزق الله أهل هذا البلد الثمرات، ويحترس ويستثنى ويحدّد من يعني.

﴿ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾

إنه إبراهيم الأواه الحليم الفائت المستقيم، يتأدب بالأدب الذي علّمه ربه، فيراعيه في طلبه ودعائه وعندئذ يجيئه رد ربه مكمّلاً ومبيّناً عن السطر الآخر الذي يسكت عنه شطر الذين لا يؤمنون، ومصيرهم الأليم: ﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ﴾.

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ ﴾

وبينما نحن في انتظار بقية الخبر إذا بالسياق يكشف لنا عنهما ويرينا إياهما كما لو كانت رؤية العين لا رؤيا الخيال، أنهما أمامنا حاضران، نكاد نسمع صوتيهما يبتهلان ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

فنعمة الدعاء هو الدعاء كلّها حاضرة كأنّها تقع اللحظة حيّة شاخصة متحرّكة، وتلك إحدى خصائص التعبير القرآني الجميل، رد المشهد الغائب الذاهب، حاضراً يسمع ويرى، ويتحرّك ويشخص وتفيض منه الحياة.

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

إنه طلب القبول، هذه هي الغاية، فهو عمل خالص لله الاتجاه به في قنوت وخشوع إلى الله والغاية المرتجاة من ورائه هي الرضى والقبول، والرضا في قبوله متعلّق بأن الله سميع عليم.

﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾

إنه رجاء العون من ربهما في الهداية إلى الإسلام الشعور بأن قلبيهما بين اصبعين من أصابع الرحمن، وأن الهدى هداه وأنه لا حول لهما ولا قوة إلاّ بالله فهما يتجهان ويرغبان والله المُستعان.

ثم أنّ طابع الأمة المسلمة التضامن تضامن الأجيال في العقيدة ﴿ ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾.

وهي دعوى تكشف عن اهتمامات القلب المؤمن إنّ أمر العقيدة هو شغله الشاغل وهمّها الأول وشعور إبراهيم وإسماعيل (ع) بقيمة النعمة التي أسبغها الله عليهما، نعمة الإيمان تدفعهما إلى الحرص عليها في عُقبها، وإلى دعاء الله ربهما ألاّ يحرم ذريتهما هذه الأنعام الذي لا يكافئه إنعام. لقد دعوا الله ربهما أن يرزق ذريتهما من الثمرات، ولم ينسيا أن يدعواه ليرزقهم من الإيمان، وأن يريهم جميعاً

مناسكهم ويبين لهم عباداتهم وأن يتوب عليهم بما أنّه هو التواب الرحيم.

﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩ ﴾

وكانت الاستجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل هي بعثة هذا الرسول الكريم (ص) بعد قرون وقرون، بعثة من ذرية إبراهيم وإسماعيل يتلو عليهم آيات الله، ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويطهّرهم من الأرجاس والأدناس. إنّ الدعوة المستجابة تستجاب، ولكنها تتحقق في أوانها الذي يقدّره الله بحكمة غير أن الناس يستعجلون، وغير الواصلين يملوّن ويقنطون.

وإذن ممن كان يربط ديانته بإبراهيم من اليهود والنصارى، ويدعي دعاواه العريضة في الهدى والجنة بسبب تلك الوراثة، ومن كان يربط نسبه بإسماعيل في قريش فليسمع؛ إنّ إبراهيم حين طلب الوراثة لبنيّه والإمامة. قال له ربه: «لا ينال عهدي الظالمين»، ولما دعا (ع) لأهل البلد بالرزق والبركة خص دعوتهما وأن يكونا مسلمين لله، وأن يجعل الله من ذريتهما أمّة مسلمة وأن يبعث في أهل بيته رسولاً منهم فاستجاب الله لهما وأرسل من أهل البيت محمد (ص) وحقّق على يديه الأمة المسلمة القائمة بأمر الله الوراثة لدين الله.

ـ السيد فضل اللّه:

يتابع القرآن حديث إبراهيم في قصة جديدة تتصّل بالتاريخ الديني في قصة النبوات من جهة، وترتبط بعلاقة الإسلام بالامتداد الرحب لشخصية إبراهيم في تطلعاتها المستقبلية من جهة أخرى وتلك هي قصة بناء البيت (الكعبة الحرام)، الذي أراده الله مرجعاً للناس يرجعون إليه ويثوبون كقاعدة روحية يعيشون فيها الشعور بالوحدة الروحية التي تربط بعضهم ببعض بين يدي الله، ويطوفون به في إحساس عميق بعبوديتهم لله، وفي استيحاء الفكرة الإيمانية المتحركة حيث

يستلهمون منه أن يكون طوافهم في الحياة حول كلمات الله وتعاليمه ومفاهيمه، ويشعرون في ظلاله بالأمن الذي أراده الله طابعاً مُميّزاً لهذا البيت في ما أوحى به إلى الأنبياء في شرائعهم، من حرمة الاعتداء على الناس والإساءة إليهم حتى في الحالات المشروعة في ذاتها، فقد ورد في بعض الأحاديث عن أئمة أهل البيت (ع)، «أن الحدّ لا يقام على الجاني في مكة إلا إذا كانت جنايته في مكة بالذات».. وكأن الله أراد أن يجعل من هذا البيت قاعدة سلام يجتمع إليها الناس من دون إحساس بالخوف وبالمشاعر المضادة التي تمنعهم من اللقاء. ثم أراد الله أن يكرّم جهد نبيه إبراهيم (ع) في بناء البيت وفي إخلاصه العميق له، فطلب من الناس أن يتخذوا من مقام إبراهيم موضعاً للصلاة، تخليداً لإيمانه وتحية لإخلاصه لله في سرّه وعلانيته، ولاستجابته لله لهم في ما يريده منه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ليعيش الناس في أجواء إبراهيم كقدوة في كل المعاني الروحية الكبيرة، فتمتزج صلاتهم بصلاته ودعواتهم بدعواته وابتهالاتهم بابتهالاته في تفاعل روحي عظيم.

ثم عهد إليه وإلى ولده إسماعيل أن يجعلا هذا البيت طاهراً من كل دنس، سواءٌ كان ذلك من مظاهر الشّرك والوثنية أو من عناصر القذارة والنجاسة أو من الأشخاص الذين يدخلون فيه من حيث نظافتهم من القذارات المادية والمعنوية ليعيش الناس الذين يطوفون به أو يقيمون فيه للاعتكاف أو يصلون فيه فيركعون ويسجدون في أجواء روحية طاهرة مادياً ومعنوياً، وربما استفاد الإنسان من الأمر بتطهير بيت الله من كل رجس، أن يكون البناء على هذا الأساس، وذلك بتشيّيده على هذه الصفة، لا لتطهيره بعد بنائه، كما قد يتوهّم، لأن ظاهر الآيات هو أن إبراهيم وإسماعيل هما اللذان قاما ببناء البيت.

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ ﴾ الكعبة المكرمة ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ مرجعاً ومآباً يثوبون إليه ويقصدونه من كل مكان، فيكون موقعاً لحركتهم العبادية ومناسبة لاجتماعهم من خلال قدومهم إليه ورجوعهم منه وقيل: مكاناً للثواب يثيب الله فيه عباده على حجّهم إليه وعبادتهم له، كما في مفردات الراغب الأصفهاني.

﴿ وَأَمْنًا ﴾

يأمن فيه الناس على أنفسهم من الظلم والاضطهاد والقتل، لأن الله جعله ساحة للسلام فلم يُرخّص لأحد في الاعتداء على أحد، ليعيش الناس هذه التجربة الروحية التي يتمرّدون فيها على غرائزهم ونوازع الانتقام في ذواتهم، وينمّون عناصر الخير والعفو والتسامح في أخلاقهم من موقع الجهاد النفسي الذي يفرُض فيه الإنسان على نفسه الصبر على المشاعر الانتقامية.

ـ وقيل: إن هذا التشريع تحوّل إلى واقع حيّ في حياة الناس الذين يعظّمون البيت الحرام ويقدسونه حتى كان الرجل يلقى قاتل أبيه فلا يتعرض له. وقد تحدّث الله عن ذلك في آية أخرى في قوله تعالى: أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ ﴾ العنكبوت: ٦٧ . ولا يخفى ما في ذلك من النعم والبركات الاقتصادية والاجتماعية والأمنية.

﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ ثم أمر الله المسلمين أن يتخذوا من مقام إبراهيم، الملاصق للبيت أو الواقع خلفه مصلى، أي مكاناً يصلون فيه، وقد فرض الله على الحجاج والمعتمرين الإتيان بركعتي الطواف بعد الطواف بالبيت، خلف مقام إبراهيم، مهما أمكن.

﴿ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ ﴾ للذين أوكل الله إليهما مُهمة بناء البيت.

﴿ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ ﴾ الذي أردته مكاناً للطواف والاعتكاف والركوع والسجود، ولغير ذلك من ألوان العبادة لله، فكان لا بد من أن يكون طاهراً من الأصنام التي تُمثّل الشرك. الذي ينافي التوحيد ومن كل القذارات المادية والمعنوية والقولية التي تتنافى مع أجواء العبادة، والمقصود من هذا العهد الإلهي لهما أن يؤسساه على الطهارة الكاملة.

﴿ لِلطَّآئِفِينَ ﴾ الذين يطوفون بالبيت.

﴿ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ أو المُعتكفين الذين يقومون بالمسجد ويلازمونه ويحاورون فيه للعبادة.

﴿ وَٱلۡعَٰكِفِينَ ﴾ الذين يركعون ويسجدون في صلاتهم.

﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ ﴾ الذي أراد للبيت أن يكون مركزاً لبلد يسكنه الناس ويجتمعون فيه للحصول على ضروراتهم العامة والخاصة.

﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ أي المكان الذي يضمّ البيت الحرام أمناً، يعيش الناس فيه الأمن والطمأنينة.

﴿ وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ ﴾ المُقيمين فيه.

﴿ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ التي يحتاجون إليها في غذائهم.

﴿ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ من هؤلاء الذين أخلصوا لله إيمانهم وانفتحوا عليه وعاشوا الاستعداد للقاء به في اليوم الآخر الذي يخضعون فيه للحساب، لأن الكافرين لا يستحقون الخير الإلهي، ولكن الله الذي استجاب له دعاءه، أعلن له أنّ الرزق الذي يُمثّل متاع الحياة الدنيا لا يختص بالمؤمنين فقط، بل يشمل الكافرين.

﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ﴾ ممّا أرزقه من متاع الحياة الدنيا في حاجاته المادية والمعنوية لأني أعطي الناس جميعاً ما يحتاجونه في وجودهم الدنيوي، سواء المؤمن والكافر والمطيع والعاصي، لأن الدنيا ليست هي الأساس في قرب الناس وبُعدهم في قضايا العطاء والمنع، بل هي الدار الآخرة التي تُمثّل المكان الفصل في اليوم الفاصل الذي تتحدّد فيه المواقع ونتائج المصير بين المؤمن والكافر، فيلقى المؤمن جزاء إيمانه، أمّا الكافر فإني أترك له الفرصة في الدنيا.

﴿ ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ في الخلود في العذاب من خلال سخط الله وغضبه.

﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ ﴾ يقيمان الأسّس التي يرتكز عليها البناء في روحية خاشعة منفتحة على رضى الله في مواقع القُرب إليه، في بناء بيته وتهيئة الأجواء التي تقرّب الناس منه وتُبعدهم عن مجالات سخطه، لأن المسجد هو المكان الذي يُهيئ للناس الفرصة للاجتماع في العبادة والاندماج في روحية الدعاء وخشوع الابتهال، فكانا يبنيان البيت كما لو كانا في حالة صلاة أو موقف طاعة

يبتهلان إلى الله فيها أن يتقبّل منهما ذلك.

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ﴾ قرباتنا وابتهالاتنا وأعمالنا.

﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ الذي يسمع نجوانا ويعلم ما في خفايا ضمائرنا ونياتنا من المحبة لك وإخلاص القرب إليك.

﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾

لنسلم لك في كل أقوالنا وأفعالنا وعلاقتنا ومواقفنا ومواقعنا وأفكارنا ومشاعرنا، لنذوب في عمق رضاك ومحبتك، فلا يكون لنا شيء إلاّ ما يرضيك في ذلك كلّه، ليكون إسلامنا حركة في وجودنا كلّه في الباطن والظاهر، وإذا كان الإسلام هو ما نتطلع إليه في منهج حياتنا، فإنّنا ننطلق به من خلال إيماننا بأنّه هو الصراط المستقيم الذي ينتهي إليك في مواقع رحمتك ورضاك، ولذلك فإنّنا نريد له أن يمتدّ في ذريتنا.

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ تتحرّك في كل حركتها في الحياة في خط الإسلام لك.

﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ من شرائع عباداتنا أو حجّنا، والنسك هو غاية الخضوع والعبادة وشاع استعماله في عبادة الحج وأعماله.

﴿ وَتُبْ عَلَيْنَآ ﴾ من موقع الإخلاص لك والاندماج في الإحساس بعظمتك حتى يخيل إلينا أنّنا لم ننسجم مع كل ما يُرضيك في الوقت الذي لم يصدر منّا شيء من شؤون سخطك.

﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الذي يتعهّد عباده بالمحبة والعفو والرضوان، فيغفر للعاصين منهم، ويزيد الطائعين من رضاه انطلاقاً من رحمته التي وسعت كل شيء.

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ من داخل مجتمعهم يعيش كل أوضاعهم ويطلع إلى كل مشاكلهم ويعرف كل حاجاتهم الروحية والفكرية والعملية، فإنّ قضية أن يكون الرسول من داخل الأمة التي يتحرّك فيها نحو العالم هي قضية الرسول الذي يعني كل الواقع، وكل الآفاق الواسعة التي ينطلق بأمته فيها، يحاكي

شجونهم وقضاياها قبل أن تصل إلى مرتبة النبوة والرسالة.

﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ ﴾التي توحي إليهم بكل الشرائع والمفاهيم والأفكار والمناهج والأساليب والأهداف، التي تُمثّل إرادتك في حياة خلقك لتكون طوع رضاك.

﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ الذي يُمثّل خط النظرية العام في المنهج الرسالي للإنسان والحياة.

﴿ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ التي تُمثّل حركة التطبيق العملي للنظرية فيضعون الاشياء في مواضع ويتحركون بها في مسارها الطبيعي.

﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ ﴾ فيطهر نفوسهم من الشّرك ومن كل القذارات الروحية الأخلاقية التي تشوّه إنسانيتهم وتربك خطواتهم، وتبعدهم عن نظافة التصوّر والسلوك.

﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الذي لا ينتقص أحدٌ من عزته الذي جعل لكل شيء قدراً ووضع كل شيء في موضعه انطلاقاً ممّا يُصلح الحياة والإنسان يجنبها المفاسد في كل حركة الواقع.

- الطبري:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾

فمعنى قوله: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ وإذ جعلنا البيت مرجعا للناس ومعاذا، يأتونه كل عام ويرجعون إليه، فلا يقضون منه وطراً. ومن»المثاب»، قول ورقة بن نوفل في صفة الحرم:

مثاب لأفناء القبائل كلها تخب إليه اليعملات الطلائح

ومنه قيل: «ثاب إليه عقله»، إذا رجع إليه بعد عزوفه عنه.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

﴿ وَأَمْنًا ﴾

والأمن: مصدر من قول القائل أمِنَ يأْمَنُ أمْناً. وإنما سماه الله أمناً لأنه كان في

الجاهلية معاذاً لمن استعاذ به، وكان الرجل منهم لو لقي به قاتل أبيه أو أخيه لم يهجه ولم يعرض له حتى يخرج منه، وكان كما قال الله جل ثناؤه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾العنكبوت: ٦٧.

﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾

اختلف القراء في قراءة ذلك: فقراءة بعضهم: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ بكسر»الخاء»، على وجه الأمر باتخاذه مصلى. وهي قراءة عامة قرّاء الكوفة والبصرة، وقراءة عامة قراء أهل مكة وبعض قراء أهل المدينة. وذهب إليه الذين قرأوه كذلك، من الخبر الذي:

حدّثنا أبو كريب ويعقوب بن إبراهيم قالا حدثنا هشيم قال، أخبرنا حميد، عن أنس بن مالك قال، قال عمر بن الخطاب: قلت: يا رسول الله، لو اتخذت المقام مصلى! فأنزل الله: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾.

وقرأه بعض قراء أهل المدينة والشام: «واتخذوا» بفتح الخاء على وجه الخبر.

والصواب من القول والقراءة في ذلك عندنا: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ ﴾ بكسر»الخاء»، على تأويل الأمر باتخاذ مقام إبراهيم مصلى، للخبر الثابت عن رسول الله (ص) الذي ذكرناه آنفا، وأن عمرو بن علي:

حدّثنا قال: حدثنا يحيى بن سعيد قال، حدثنا جعفر بن محمد قال، حدثني أبي، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله (ص) قرأ: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾.

ثم اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾، وفي «مقام إبراهيم». فقال بعضهم: «مقام إبراهيم»، هو الحج كله.

وقال آخرون: مقام إبراهيم عرفة والمزدلفة والجمار.

وقال آخرون: مقام إبراهيم: الحرم.

وقال آخرون: مقام إبراهيم: الحجر الذي قام عليه إبراهيم حين ارتفع بناؤه، وضعف عن رفع الحجارة.

وقال آخرون: بل مقام إبراهيم، هو مقامه الذي هو في المسجد الحرام.

وأولى هذه الأقوال بالصواب عندنا، ما قاله القائلون: إن»مقام إبراهيم»، هو المقام المعروف بهذا الاسم، الذي هو في المسجد الحرام، لما روينا آنفا عن عمر بن الخطاب، ولما:

حدّثنا يوسف بن سلمان قال، حدثنا حاتم بن إسماعيل قال، حدثنا جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جابر قال: استلم رسول الله صلى الله عليه وسلم الركن، فرمل ثلاثا، ومشى أربعا، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾. فجعل المقام بينه وبين البيت، فصلى ركعتين. فهذان الخبران ينبئان أن الله تعالى ذكره إنما عنى بمقام إبراهيم الذي أمرنا الله باتخاذه مصلى هو الذي وصفنا. ولو لم يكن على صحة ما اخترنا في تأويل ذلك خبر عن رسول الله (ص)، لكان الواجب فيه من القول ما قلنا. وذلك أن الكلام محمول معناه على ظاهره المعروف، دون باطنه المجهول، حتى يأتي ما يدل على خلاف ذلك، ممّا يجب التسليم له.

وقال آخرون: معنى ذلك: اتخذوا مصلى تصلون عنده.

فكأن الذين قالوا: تأويل: «المصلى» ههنا، المُدَّعَى، وَجَّهوا «المصَلَّى» إلى أنه «مُفَعَّل»، من قول القائل: «صليت» بمعنى دعوت. وقائلو هذه المقالة، هم الذين قالوا: إن مقام إبراهيم هو الحجّ كلّه.

فكان معناه في تأويل هذه الآية: واتخذوا عرفة والمزدلفة والمشعر والجمار، وسائر أماكن الحج التي كان إبراهيم يقوم بها مَدَاعِيَ تدعوني عندها، وتأتمون بإبراهيم خليلي عليه السلام فيها، فإني قد جعلته لمن بعده من أوليائي وأهل طاعتي إماماً يقتدون به وبآثاره، فاقتدوا به.

وأما تأويل القائلين القول الآخر، فإنه: اتخذوا أيها الناس من مقام إبراهيم مصلى تصلون عنده، عبادةً منكم، وتكرمةً مني لإبراهيم.

وهذا القول هو أولى بالصواب، لما ذكرنا من الخبر عن عمر بن الخطاب وجابر ابن عبد الله، عن رسول الله (ص).

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ﴾

فمعنى الآية: وأمرنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتي للطائفين. والتطهير الذي أمرهما الله به في البيت، هو تطهيره من الأصنام وعبادة الأوثان فيه ومن الشرك بالله.

﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾

اختلف أهل التأويل في معنى الطائفين في هذا الموضع، فقال بعضهم: هم الغرباء الذين يأتون البيت الحرام من غربة.

وقال آخرون: بل الطائفون هم الذين يطوفون به غرباء كانوا أو من أهله.

وأولى التأويلين بالآية ما قاله عطاء، لأن الطائف هو الذي يطوف بالشيء دون غيره، والطارئ من غربة لا يستحق اسم طائف بالبيت إن لم يطف به.

﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾

يعني تعالى بقوله: ﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾ المقيمين به، أو العاكف على الشيء: وهو المُقيم عليه.

ثم اختلف أهل التأويل فيمن عنى الله بقوله: ﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾ فقال بعضهم: عنى به الجالس في البيت الحرام بغير طواف ولا صلاة.

وقال بعضهم: العاكفون هم المعتكفون المجاورون.

وقال بعضهم: العاكفون هم أهل البلد الحرام.

وقال آخرون: العاكفون: هم المصلون.

وأولى هذه التأويلات بالصواب ما قاله عطاء، وهو أن «العاكف» في هذا الموضع، المقيم في البيت مجاوراً فيه بغير طواف ولا صلاة. لأن صفة «العكوف» ما وصفنا: من الإقامة بالمكان. والمقيم بالمكان قد يكون مقيماً به وهو جالس ومصل وطائف وقائم، وعلى غير ذلك من الأحوال. فلما كان تعالى ذكره قد ذكر في قوله: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ المصلين والطائفين، علم بذلك أن الحال التي عنى الله تعالى ذكره من «العاكف»، غير حال المصلي والطائف، وأن التي عنى من أحواله، هو العكوف بالبيت، على سبيل الجوار فيه، وإن لم يكن مصلياً فيه ولا

راكعاً ولا ساجداً.

﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿وَٱلرُّكَّعِ﴾، جماعة القوم الراكعين فيه له، واحدهم «راكع». وكذلك «السجود» هم جماعة القوم الساجدين فيه له، واحدهم ساجد، كما يقال رجل قاعد ورجال قعود ورجل جالس ورجال جلوس فكذلك رجل ساجد ورجال سجود. وقيل: بل عنى بالركع السجود: المصلين.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾

يعني تعالى بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾، واذكروا إذ قال إبراهيم: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾. يعني بقوله: «آمنا»: آمنا من الجبابرة وغيرهم، أن يسلطوا عليه، ومن عقوبة الله أن تناله، كما تنال سائر البلدان، من خسف، وائتفاك، وغرق، وغير ذلك من سخط الله ومثلاته التي تصيب سائر البلاد غيره، كما:

حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد قال، حدثنا سعيد، عن قتادة قال: ذكر لنا أن الحرم حُرِّم بحياله إلى العرش. وذكر لنا أن البيت هبط مع آدم حين هبط. قال الله له: أهبط معك بيتي يطاف حوله كما يطاف حول عرشي. فطاف حوله آدم ومن كان بعده من المؤمنين، حتى إذا كان زمان الطوفان حين أغرق الله قوم نوح رفعه وطهره، ولم تصبه عقوبة أهل الأرض. فتتبع منه إبراهيم أثرا، فبناه على أساس قديم كان قبله.

فإن قال لنا قائل: أوما كان الحرم آمنا إلاّ بعد أن سأل إبراهيم ربه له الأمان؟

قيل له: لقد اختلف في ذلك. فقال بعضهم: لم يزل الحرم آمناً من عقوبة الله وعقوبة جبابرة خلقه، منذ خلقت السموات والأرض. واعتلوا في ذلك بما:

حدثنا أبو كريب قال، حدثنا يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق قال، حدثني

سعيد بن أبي سعيد المقبري، قال سمعت أبا شريح الخزاعي يقول: لما افتتحت مكة قتلت خزاعة رجلاً من هذيل، فقام رسول الله (ص) خطيباً فقال: «يا أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، أو يعضد بها شجراً. ألا وإنها لا تحل لأحد بعدي، ولم تحل لي إلا هذه الساعة، غضباً علي أهلها. ألا فهي قد رجعت على حالها بالأمس. ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فمن قال: إن رسول الله (ص) قد قتل بها! فقولوا: إن الله قد أحلها لرسوله ولم يُحِلَّها لكم».

وقال آخرون: كان الحرم حلالاً قبل دعوة إبراهيم كسائر البلاد غيره، وإنما صار حراماً بتحريم إبراهيم إياه، كما كانت مدينة رسول الله (ص) حلالاً قبل تحريم رسول الله (ص) إياها.

والصواب من القول في ذلك عندنا: أن الله تعالى ذكره جعل مكة حرماً حين خلقها وأنشأها، كما أخبر النبي (ص)، أنه حرّمها يوم خلق السموات والأرض، بغير تحريم منه لها على لسان أحد من أنبيائه ورُسله، ولكن بمنعه من أرادها بسوء، وبدفعه عنها من الآفات والعقوبات، وعن ساكنيها، ما أحلّ بغيرها وغير ساكنيها من النقمات. فلم يزل ذلك أمرها حتى بوأها الله إبراهيم خليله، وأسكن بها أهله هاجر وولده إسماعيل. فسأل حينئذ إبراهيم ربه إيجاب فرض تحريمها على عباده على لسانه، ليكون ذلك سنة لمن بعده من خلقه، يستنون به فيها، إذ كان تعالى ذكره قد اتخذه خليلاً وأخبره أنه جاعله، للناس إماما يقتدى به، فأجابه ربه إلى ما سأله، وألزم عباده حينئذ فرض تحريمه على لسانه، فصارت مكة بعد أن كانت ممنوعة بمنع الله إياها، بغير إيجاب الله فرض الامتناع منها على عباده، ومحرمة بدفع الله عنها، بغير تحريمه إياها على لسان أحد من رسله فرض تحريمها على خلقه على لسان خليله إبراهيم (عليه السلام)، وواجب على عباده الامتناع من استحلالها، واستحلال صيدها وعضاهها لها بإيجابه الامتناع من ذلك ببلاغ إبراهيم رسالة الله إليه بذلك إليهم. فلذلك أضيف تحريمها إلى إبراهيم، فقال رسول الله (ص): «إن الله حرم مكة». لأن

فرض تحريمها الذي ألزم الله عباده على وجه العبادة له به دون التحريم الذي لم يزل متعبداً به على وجه الكلاءة والحفظ لها قبل ذلك كان عن مسألة إبراهيم ربه إيجاب فرض ذلك على لسانه، لزم العباد فرضه دون غيره.

فقد تبين بما قلنا صحة معنى الخبرين أعني خبر أبي شُريح وابن عباس عن النبي (ص) أنه قال: «وإن الله حرم مكة يوم خلق الشمس والقمر» وخبر جابر وأبي هريرة ورافع بن خديج وغيرهم: أن النبي (ص) قال: «اللهم إن إبراهيم حرم مكة»؛ وأن ليس أحدهما دافعاً صحة معنى الآخر، كما ظنه بعض الجهال.

﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾

وهذه مسألة من إبراهيم ربه: أن يرزق مؤمني أهل مكة من الثمرات، دون كافريهم. وخص، بمسألة ذلك للمؤمنين دون الكافرين، لما أعلمه الله عند مسألته إياه أن يجعل من ذريته أئمة يقتدى بهم أن منهم الكافر الذي لا ينال عهده، والظالم الذي لا يدرك ولايته. فلما أن علم أن من ذريته الظالم والكافر، خص بمسألته ربه أن يرزق من الثمرات من سكان مكة، المؤمن منهم دون الكافر. وقال الله له: إني قد أجبت دعاءك، وسأرزق مع مؤمني أهل هذا البلد كافرهم، فأمتعه به قليلاً.

﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾

اختلف أهل التأويل في قائل هذا القول، وفي وجه قراءته. فقال بعضهم: قائل هذا القول ربّنا تعالى ذكره، وتأويله على قولهم: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾

برزقي من الثمرات في الدنيا، إلى أن يأتيه أجله. وقرأ قائل هذه المقالة ذلك: ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾، بتشديد»التاء» ورفع العين.

وقال آخرون: بل قال ذلك إبراهيم خليل الرحمن، على وجه المسألة منه ربه أن يرزق الكافر أيضاً من الثمرات بالبلد الحرام، مثل الذي يرزق به المؤمن ويمتعه بذلك قليلاً «ثم اضطره إلى عذاب النار» بتخفيف «التاء» وجزم»العين»، وفتح «الراء» من اضطره، وفصل «ثم اضطره» بغير قطع ألفها على وجه الدعاء من إبراهيم ربه لهم والمسألة.

وإذ كان ذلك كذلك، فتأويل الآية: قال الله: يا إبراهيم، قد أجبت دعوتك، ورزقت مؤمني أهل هذا البلد من الثمرات وكفارهم، متاعاً لهم إلى بلوغ آجالهم، ثم أضطر كفارهم بعد ذلك إلى النار.

وأما قوله: ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ يعني: فأجعل ما أرزقه من ذلك في حياته متاعا يتمتع به إلى وقت مماته.

﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾

يعنى تعالى ذكره بقوله: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾

، ثم أدفعه إلى عذاب النار وأسوقه إليها، كما قال تعالى ذكره: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ﴾الطور: ١٣ . ومعنى»الاضطرار»، الإكراه. يقال: «اضطررت فلاناً إلى هذا الأمر»، إذا ألجأته إليه وحملته عليه. فذلك معنى قوله: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾، أدفعه إليها وأسوقه، سحباً وجراً على وجهه.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾

ومعنى الكلام: وساء المصيرُ عذابُ النار، بعد الذي كانوا فيه من متاع الدنيا الذي متعتهم فيها.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ واذكروا إذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت. و»القواعد» جمع»قاعدة»، يقال للواحدة من «قواعد البيت» «قاعدة»، وللواحدة من «قواعد النساء» وعجائزهن «قاعد»، فتلغى هاء التأنيث، لأنها «فاعل» من قول القائل: «قعدت عن الحيض»، ولا حظَّ فيه للذكورة، كما يقال: «امرأة طاهر وطامث»، لأنه لا حظ في ذلك للذكور. ولو عنى به «القعود» الذي هو خلاف «القيام»، لقيل: «قاعدة»، ولم يجز حينئذ إسقاط هاء التأنيث. و»قواعد البيت»: أساسه.

ثم اختلف أهل التأويل في»القواعد» التي رفعها إبراهيم وإسماعيل من البيت. أهما أحدثا ذلك، أم هي قواعد كانت له قبلهما؟

فقال قوم: هي قواعد بيت كان بناه آدم أبو البشر بأمر الله إياه بذلك، ثم درس مكانه وتعفَّى أثرُه بعده، حتى بوأه الله إبراهيم (ع)، فبناه.

وقال آخرون: بل هي قواعد بيت كان الله أهبطه لآدم من السماء إلى الأرض، يطوف به كما كان يطوف بعرشه في السماء، ثم رفعه إلى السماء أيام الطوفان، فرفع إبراهيم قواعد ذلك البيت.

وقال آخرون: بل كان موضع البيت ربوة حمراء كهيئة القبة. وذلك أن الله لما أراد خلق الأرض علا الماء زبْدة حمراء أو بيضاءُ، وذلك في موضع البيت الحرام. ثم دحا الأرض من تحتها، فلم يزل ذلك حتى بوأه الله إبراهيم، فبناه على أساسه. وقالوا: أساه على أركان أربعة في الأرض السابعة.

والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن إبراهيم خليله أنه وابنه إسماعيل، رفعا القواعد من البيت الحرام. وجائز أن يكون ذلك قواعد بيت كان أهبطه مع آدم، فجعله مكان البيت الحرام الذي بمكة. وجائز أن يكون ذلك كان القبة التي ذكرها عطاء، مما أنشأه الله من زبد الماء. وجائز أن يكون كان ياقوتة أو درة أهبطها من السماء. وجائز أن يكون كان آدم بناه ثم انهدم، حتى رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل. ولا علم عندنا بأي ذلك كان من أي، لأن حقيقة ذلك لا تدرك إلا بخبر عن الله وعن رسوله (ص)، بالنقل المستفيض. ولا خبر بذلك تقوم به الحجّة فيجب التسليم لها، ولا هو إذ لم يكن به خبر، على ما وصفنا ممّا يدل عليه بالاستدلال والمقاييس، فيمثل بغيره، ويستنبط علمه من جهة الاجتهاد، فلا قول في ذلك هو أولى بالصواب ممّا قلنا. والله تعالى أعلم.

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾وذكر أن ذلك كذلك في قراءة ابن مسعود، وهو قول

جماعة من أهل التأويل.

فتأويل الآية على هذا القول: وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل قائلَيْن: ربنا تقبل منا.

وقال آخرون: بل قائل ذلك كان إسماعيل.

ثم اختلف أهل التأويل في الذي رفع القواعد بعد اجماعهم على أن إبراهيم كان ممن رفعها، فقال بعضهم: رفعها إبراهيم وإسماعيل جميعاً.

وقال آخرون: بل رفع قواعد البيت إبراهيم، وكان إسماعيل يناوله الحجارة.

والصواب من القول عندنا في ذلك: أن المُضمر من القول لإبراهيم وإسماعيل، وأن قواعد البيت رفعها إبراهيم وإسماعيل جميعاً. وذلك أن إبراهيم وإسماعيل، إن كانا هما بنياها ورفعاها فهو ما قلنا. وإن كان إبراهيم تفرّد ببنائها، وكان إسماعيل يناوله، فهما أيضاً رفعاها، لأن رفعها كان بهما: من أحدهما البناء، ومن الآخر نقل الحجارة إليها ومعونة وضع الأحجار مواضعها. ولا تمتنع العرب من نسبة البناء إلى من كان بسببه البناء ومعونته.

فتأويل الكلام: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ يقولان: ربنا تقبل منا عملنا، وطاعتنا إياك، وعبادتنا لك، في انتهائنا إلى أمرك الذي أمرتنا به، في بناء بيتك الذي أمرتنا ببنائه، إنك أنت السميع العليم.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

وتأويل قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ إنك أنت السميع دعاءنا ومسألتنا إياك قبول ما سألناك قبوله منا من طاعتك في بناء بيتك الذي أمرتنا ببنائه، العليم بما في ضمائر نفوسنا من الإذعان لك في الطاعة والمصير إلى ما فيه لك الرضا والمحبة، وما نُبدي ونُخفي من أعمالنا.

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾

وهذا أيضاً خبر من الله تعالى ذكره عن إبراهيم وإسماعيل: أنهما كانا يرفعان القواعد من البيت وهما يقولان:﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ ﴾، يعنيان بذلك: واجعلنا مستسلمين لأمرك، خاضعين لطاعتك، لا نشرك معك في الطاعة أحداً سواك، ولا في العبادة غيرك. وقد دللنا في ما مضى على أن معنى»الإسلام»: الخضوع لله بالطاعة.

وأما قوله: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ ﴾، فإنهما خصّا بذلك بعض الذرية، لأن الله تعالى ذكره قد كان أعلم إبراهيم خليله (ع) قبل مسألته هذه، أن من ذريته من لا ينال عهده لظلمه وفجوره. فخصا بالدعوة بعض ذريتهما. وقد قيل: إنهما عنيا بذلك العرب.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾

اختلفت القرأة في قراءة ذلك. فقرأه بعضهم: ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ بمعنى رؤية العين، أي أظهرها لأعيننا حتى نراها. وذلك قراءة عامة أهل الحجاز والكوفة. وكان بعض من يوجه تأويل ذلك إلى هذا التأويل، يسكن الراء من «أرِنا»، غير أنه يشملها كسرة.

واختلف قائل هذه المقالة وقرأة هذه القراءة في تأويل قوله: ﴿ مَنَاسِكَنَا ﴾ فقال بعضهم: هي مناسك الحج ومعالمه.

والقول واحد، فمن كسر»الراء» جعل علامة الجزم سقوط «الياء» التي في قول القائل: «أرينه» «أرنه»، وأقر الراء مكسورة كما كانت قبل الجزم. ومن سكن «الراء» من «أرنا»، توهم أن إعراب الحرف في «الراء»، فسكنها في الجزم، كما فعلوا ذلك في «لم يكن» و»لم يك».

وسواء كان ذلك من رؤية العين أو من رؤية القلب. ولا معنى لفرق من فرق بين رؤية العين في ذلك ورؤية القلب.

وأما «المناسك» فإنها جمع «منسك»، وهو الموضع الذي ينسك لله فيه، ويتقرب إليه فيه بما يرضيه من عمل صالح: إمّا بذبح ذبيحة له، وإمّا بصلاة أو طواف أو سعي، وغير ذلك من الأعمال الصالحة. ولذلك قيل لمشاعر الحج «مناسكه»، لأنها

أمارات وعلامات يعتادها الناس، ويترددون إليها.

﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

أما «التوبة»، فأصلها الأوبة من مكروه إلى محبوب. فتوبة العبد إلى ربه، أوبته ممّا يكرهه الله منه، بالندم عليه، والإقلاع عنه، والعزم على ترك العود فيه. وتوبة الرب على عبده: عوده عليه بالعفو له عن جرمه، والصفح له عن عقوبة ذنبه، مغفرة له منه، وتفضلا عليه.

فإن قال لنا قائل: وهل كان لهما ذنوب فاحتاجا إلى مسألة ربهما التوبة؟ قيل: إنه ليس أحد من خلق الله، إلاّ وله من العمل في ما بينه وبين ربه ما يجب عليه الإنابة منه والتوبة. فجائز أن يكون ما كان من قبلهما ما قالا من ذلك، وإنما خَصَّا به الحال التي كانا عليها، من رفع قواعد البيت. لأن ذلك كان أحرى الأماكن أن يستجيب الله فيها دعاءهما، وليجعلا ما فعلا من ذلك سنة يقتدى بها بعدهما، وتتّخذ الناس تلك البقعة بعدهما موضع تنصّل من الذنوب إلى الله. وجائز أن يكونا عنياً بقولهما:﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ ﴾، وتب على الظلمة من أولادنا وذريتنا الذين أعلمتنا أمرهم من ظلمهم وشركهم، حتى ينيبوا إلى طاعتك. فيكون ظاهر الكلام على الدعاء لأنفسهما، والمعني به ذريتهما. كما يقال: «أكرمني فلان في ولدي وأهلي، وبرني فلان»، إذا بر ولده.

وأما قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾، فإنه يعني به: إنك أنت العائد على عبادك بالفضل، والمتفضل عليهم بالعفو والغفران الرحيم بهم، المستنقذ من تشاء منهم برحمتك من هلكته، المُنجي من تريد نجاته منهم برأفتك من سخطك.

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

وهذه دعوة إبراهيم وإسماعيل لنبينا محمد (ص) خاصة، وهي الدعوة التي كان نبينا (ص) يقول: «أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى».

وبالذي قلنا في ذلك قال جماعة من أهل التأويل.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾

ويعني بالكتاب القرآن. وقد بيّنت في ما مضى لم سمي القرآن كتاباً وما تأويله. وهو قول جماعة من أهل التأويل.

ثم اختلف أهل التاويل في معنى الحكمة التي ذكرها الله في هذا الموضع، فقال بعضهم: هي السنة.

وقال بعضهم: الحكمة هي المعرفة بالدين والفقه فيه.

والصواب من القول عندنا في الحكمة، أنها العلم بأحكام الله التي لا يدرك علمها إلاّ ببيان الرسول (ص)، والمعرفة بها، وما دل عليه ذلك من نظائره. وهو عندي مأخوذ من «الحكم» الذي بمعنى الفصل بين الحق والباطل، بمنزلة «الجِلسة والقِعدة» من «الجلوس والقعود»، يقال منه: «إن فلاناً لحكيم بين الحكمة»، يعني به: إنه لبين الإصابة في القول والفعل. وإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الآية: ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك، ويعلمهم كتابك الذي تنزله عليهم، وفصل قضائك وأحكامك التي تعلمه إياها.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾

قد دللّنا في ما مضى قبل على أن معنى التزكية: التطهير، وأن معنى الزكاة، النماء والزيادة. فمعنى قوله:﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ في هذا الموضع: ويطهرهم من الشّرك بالله وعبادة الأوثان، وينميهم ويكثّرهم بطاعة الله.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

يعني تعالى ذكره بذلك: إنك يا ربّ أنت العزيز القوي الذي لا يعجزه شيء أراده، فافعل بنا وبذريتنا ما سألناه وطلبناه منك؛ و«الحكيم» الذي لا يدخل تدبيره خلل ولا زلل، فأعطنا ما ينفعنا وينفع ذريتنا، ولا ينقصك ولا ينقص خزائنك.

ـ الطبرسي:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾

المعنى : قوله: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ﴾ عطف على قوله: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى﴾، وذلك معطوف على قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾ و﴿ ٱلْبَيْتَ ﴾ الذي جعله الله مثابة هو البيت الحرام وهو الكعبة، وروي أنه سمي البيت الحرام لأنه حرم على المشركين أن يدخلوه، وسمي الكعبة لأنها مربعة وصارت مربعة لأنها بحذاء البيت المعمور وهو مربع وصار البيت المعمور مربعاً لأنه بحذاء العرش وهو مربع وصار العرش مربعاً لأن الكلمات التي بني عليها الإسلام أربع ، وهي سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاَّ الله والله أكبر، وقوله: ﴿ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ ذكر فيه وجوه فقيل أن الناس يثوبون إليه كل عام أي: ليس هو مرة في الزمان فقط على الناس عن الحسن، وقيل معناه: أنه لا ينصرف منه أحد وهو يرى أنه قد قضى منه وطراً فهم يعودون إليه عن ابن عباس، وقد ورد في الخبر أن من رجع من مكة وهو ينوي الحج من قابل زيد في عمره، ومن خرج من مكة وهو لا ينوي العود إليها فقد قرب أجله، وقيل معناه: يحجون إليه فيثابون عليه، وقيل: مثابة معاذاً وملجأ، وقيل: مجمعاً، والمعنى في الكل يؤول إلى أنهم يرجعون إليه مرة بعد مرة، وقوله: ﴿ وَأَمْنًا ﴾ أراد مأمناً أي: موضع أمن، وإنما جعله الله أمناً بأن حكم أن من عاذ به والتجأ إليه لا يخاف على نفسه ما دام فيه، وبما جعله في نفوس العرب من تعظيمه حتى كانوا لا يتعرضون من فيه فهو آمن على نفسه وماله، وإنَّ كانوا يتخطفون الناس من حوله، ولعظم حرمته لا يقام في الشرع الحد على من جنى جناية فالتجأ إليه وإلى حرمه لكن يضيق عليه في المطعم والمشرب والبيع والشراء حتى يخرج منه فيقام عليه الحد، فإن أحدث فيه ما يوجب الحد أقيم عليه الحد فيه لأنه هتك حرمة الحرم فهو آمن من هذه الوجوه، وكان قبل الإسلام يرى الرجل قاتل أبيه في الحرم فلا يتعرض له، وهذا شيء كانوا قد توارثوه من دين إسماعيل فبقوا عليه إلى أيام نبينا (ص) وقوله: ﴿ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ

مُصَلًّى ﴾

قال ابن عباس الحج كله مقام إبراهيم وقال عطاء مقام إبراهيم عرفة والمزدلفة والجمار وقال مجاهد الحرم كله مقام إبراهيم وقال الحسن وقتادة والسدي هو الصلاة عند مقام إبراهيم أمرنا بالصلاة عنده بعد الطواف وهو المروي عن الصادق (ع) وقد سئل عن الرجل يطوف بالبيت طواف الفريضة ونسي أن يصلي ركعتين عند مقام إبراهيم فقال يصليها ولو بعد أيام أن الله تعالى قال: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ وهذا هو الظاهر لأن مقام إبراهيم إذا أطلق لا يفهم منه إلاَّ المقام المعروف الذي هو في المسجد الحرام وفي المقام دلالة ظاهرة على نبوة إبراهيم (ع) فإن الله جعل الحجر تحت قدميه كالطين حتى دخلت قدمه فيه وكان في ذلك معجزة له وروي عن أبي جعفر الباقر (ع) أنه قال نزلت ثلاثة أحجار من الجنة مقام إبراهيم وحجر بني إسرائيل والحجر الأسود استودعه الله إبراهيم (ع) حجراً أبيض وكان أشد بياضا من القراطيس فاسود من خطايا بني آدم .

ابن عباس قال لما أتى إبراهيم بإسماعيل وهاجر فوضعهما بمكة وأتت على ذلك مدة ونزلها الجرهميون وتزوج إسماعيل امرأة منهم وماتت هاجر واستأذن إبراهيم سارة أن يأتي هاجر فأذنت له وشرطت عليه أن لا ينزل فقدم إبراهيم (ع) وقد ماتت هاجر فذهب إلى بيت إسماعيل فقال لامرأته أين صاحبك قالت ليس هنا ذهب يتصيد وكان إسماعيل يخرج من الحرم فيصيد ثم يرجع فقال لها إبراهيم هل عندك ضيافة قالت ليس عندي شيء وما عندي أحد فقال لها إبراهيم إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولي له فليغير عتبة بابه وذهب إبراهيم (ع) فجاء إسماعيل (ع) فوجد ريح أبيه فقال لامرأته هل جاءك أحد؟ قالت: جاءني شيخ صفته كذا و كذا كالمستخفة بشأنه قال: فما قال لك؟ قالت: قال لي: أقرئي زوجك السلام، و قولي له: فليغير عتبة بابه. فطلقها و تزوج أخرى فلبث إبراهيم ما شاء الله أن يلبث، ثم استأذن سارة أن يزور إسماعيل ؛ فأذنت له و اشترطت عليه أن لا ينزل. فجاء إبراهيم حتى انتهى إلى باب إسماعيل فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت: ذهب

يتصيد وهو يجيء الآن إِنْ شاء الله، فانزل يرحمك الله. قال لها هل عندك ضيافة؟ قالت: نعم فجاءت باللبن واللحم فدعا لهما بالبركة فلو جاءت يومئذ بخبز أو بر أو شعير أو تمر لكان أكثر أرض الله براً و شعيراً و تمراً فقالت له: أنزل حتى أغسل رأسك فلم ينزل. فجاءت بالمقام، فوضعته على شقه الأيمن فوضع قدمه عليه فبقي أثره، فغسلت شق رأسه الأيمن، ثم حولت المقام إلى شقه الأيسر، فغسلت شق رأسه الأيسر، فبقي أثر قدمه عليه فقال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام، وقولي له: قد استقامت عتبة بابك. فلما جاء إسماعيل (ع) وجد ريح أبيه فقال لامرأته هل جاءك أحد قالت نعم شيخ أحسن الناس وجها وأطيبهم ريحا فقال لي كذا وكذا وقلت له كذا وغسلت رأسه وهذا موضع قدميه على المقام فقال إسماعيل لها ذاك إبراهيم (ع) وقد روي هذه القصة بعينها علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن أبان عن الصادق (ع) وإن اختلف بعض ألفاظه وقال في آخرها إذا جاء زوجك فقولي له جاء ههنا شيخ وهو يوصيك بعتبة بابك خيراً . قال: فأكب إسماعيل على المقام يبكي ويقبله، وفي رواية أخرى عنه (ع) أن إبراهيم استأذن سارة أن يزور إسماعيل فأذنت له أن لا يلبث عنها، وأن لا ينزل عن حماره فقيل له: كيف كان ذلك؟ فقال: إِنَّ الأرض طويت له . وروى عبد الله بن عمر عن رسول الله (ص) قال: الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما، ولو لا أن نورهما طمس لأضاءا ما بين المشرق والمغرب، وقوله: ﴿ مُصَلًّى ﴾ فيه أقوال قيل مدعى من صليت أي: دعوت عن مجاهد، وقيل: قبلة عن الحسن، وقيل: موضع صلاة فأمر أن يصلي عنده عن قتادة والسدي، وهذا هو المروي عن أئمتنا (ع)، واستدل أصحابنا به على أن صلاة الطواف فريضة مثل الطواف؛ لأن الله تعالى أمر بذلك وظاهر الأمر يقتضي الوجوب ولا صلاة واجبة عند مقام إبراهيم غير صلاة الطواف بلا خلاف، وقوله: ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ ﴾ أي: أمرناهما وألزمناهما ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ ﴾ أي: قلنا لهما أن طهرا بيتي لأن أن هذه هي المفسرة التي تكون عبارة عن القول إذا صاحبت من الألفاظ ما يتضمن معنى القول كقوله سبحانه: ﴿ وَعَهِدْنَآ ﴾ هنا وذكر

في التطهير هنا وجوه : أحدها : أن المراد طهرا من الفرث والدم الذي كان يطرحه المشركون عند البيت قبل أن يصير في يد إبراهيم وإسماعيل عن الجبائي. وثانيها : أن المراد طهراه من الأصنام التي كانوا يعلقونها على باب البيت قبل إبراهيم عن مجاهد وقتادة. وثالثها : أن المراد طهراه بنيانا بكماله على الطهارة كما قال سبحانه: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ﴾التوبة: ١٠٩ وإنما أضاف البيت إلى نفسه تفضيلا له على سائر البقاع وتمييزاً وتخصيصاً، وقوله: ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ ﴾ أكثر المفسرين على أن الطائفين هم الدائرون حول البيت والعاكفين هم المجاورون للبيت وقال سعيد بن جبير: أن الطائفين هم الطارئون على مكة من الآفاق والعاكفين هم المقيمون فيها، وقال ابن عباس: العاكفون المصلون، والأول أصح لأنه المفهوم من إطلاق اللفظ، وقوله:﴿ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ قيل: هم المصلون عند البيت يركعون ويسجدون عن قتادة. وقيل: هم جميع المسلمين لأن من شأن المسلمين الركوع والسجود عن الحسن، وقال عطاء: إذا طاف به فهو من الطائفين وإذا جلس فهو من العاكفين، وإذا صلى فهو من الركع السجود قال رسول الله (ص): ((إنْ الله عزَّ وجلَّ في كل يوم وليلة عشرين ومائة رحمة تنزل على هذا البيت ستون منها للطائفين وأربعون للعاكفين وعشرون للناظرين)).

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾

المعنى: اذكر ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ﴾ أي: هذا البلد يعني مكة ﴿ بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ أي: ذا أمن كما يقال بلد آهل أي: ذو أهل، وقيل: معناه يأمنون فيه كما يقال ليل نائم أي: ينام فيه. قال ابن عباس: يريد حراماً محرماً لا يصاد طيره، ولا يقطع شجرة ، ولا يختلى خلاؤه ، وإلى هذا المعنى يؤول ما روي عن الصادق (ع) من قوله: ((من دخل الحرم مستجيراً به فهو آمن من سخط الله عزَّ وجلَّ، ومن

دخله من الوحش والطير كان آمنا من أن يهاج، أو يؤذى حتى يخرج من الحرم)). وقال رسول الله (ص) : ((يوم فتح مكة أن الله تعالى حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهي حرام إلى أن تقوم الساعة لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد من بعدي ولم تحل لي إلاَّ ساعة من النهار)) . فهذا الخبر وأمثاله المشهورة في روايات أصحابنا تدل على أن الحرم كان آمنا قبل دعوة إبراهيم (ع)، وإنما تأكدت حرمته بدعائه (ع)، وقيل: إنما صار حرماً بدعائه (ع)، وقبل ذلك كان كسائر البلاد، واستدل عليه بقول النبي (ص): ((إنْ إبراهيم حرم مكة وإني حرمت المدينة)) ، وقيل: كانت مكة حراماً قبل الدعوة بوجه غير الوجه الذي صارت به حراماً بعد الدعوة، فالأول: بمنع الله إياها من الاصطلام والائتفاك كما لحق ذلك غيرها من البلاد، وبما جعل ذلك في النفوس من تعظيمها والهيبة لها . والثاني: بالأمر بتعظيمه على ألسنة الرسل فأجابه الله تعالى إلى ما سأل وإنما سأله أن يجعلها آمنة من الجدب والقحط ، لأنه أسكن أهله بواد غير ذي زرع ولا ضرع ولم يسأله أمنها من الائتفاك والخسف الذي كان حاصلاً لها، وقيل: أنه (ع) سأله الأمرين على أن يديمهما، وإنْ كان أحدهما مستأنفاً، والآخر قد كان قبل، وقوله: ﴿ وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ أي: أعط من أنواع الرزق والثمرات ﴿ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ سأل لهم الثمرات ليجتمع لهم الأمن والخصب فيكونوا في رغد من العيش وروي عن أبي جعفر (ع) أن المراد بذلك أن الثمرات تحمل إليهم من الآفاق، وروي عن الصادق (ع) قال: هي ثمرات القلوب أي: حببهم إلى الناس ليثوبوا إليهم وإنما خص بذلك من آمن بالله لأن الله تعالى قد أعلمه أنه يكون في ذريته الظالمون في جواب مسألته إياه لذريته الإمامة بقوله: ﴿ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فخص بالدعاء في الرزق المؤمنين تأدبا بأدب الله تعالى، وقيل: أنه (ع) ظن أنه إذا دعا للكفار بالرزق أنهم يكثرون بمكة ويفسدون فربما يصدون الناس عن الحج فخص بالدعاء أهل الإيمان، وقوله: ﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ﴾ أي: قال الله سبحانه قد استجبت دعوتك فيمن آمن منهم ومن كفر فأمتعه بالرزق الذي أرزقه إلى وقت مماته وقيل فأمتعه بالبقاء في الدنيا وقيل أمتعه بالأمن

والرزق إلى خروج محمد (ص) فيقتله إنَّ أقام على كفره أو يجليه عن مكة عن الحسن﴿ ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ ﴾ أي: أدفعه إلى النار، وأسوقه إليها في الآخرة ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ أي: المرجع والمأوى والمال .

﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

المعنى : ثم بين سبحانه كيف بنى إبراهيم البيت فقال: ﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ ﴾، وتقديره واذكر إذ يرفع ﴿إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ ﴾ أي: أصول البيت التي كانت قبل ذلك عن ابن عباس وعطاء قالا: قد كان آدم (ع) بناه ثم عفا أثره فجدده إبراهيم (ع)، وهذا هو المروي عن أئمتنا (ع) وقال مجاهد: بل أنشأه إبراهيم (ع) بأمر الله عزَّ وجلَّ، وكان الحسن يقول: أول من حج البيت إبراهيم، وفي روايات أصحابنا أن أول من حج البيت آدم (ع)، وذلك يدل على أنه كان قبل إبراهيم، وروي عن الباقر(ع) أنه قال: أن الله تعالى وضع تحت العرش أربع أساطين وسماه الضراح، وهو البيت المعمور وقال للملائكة: طوفوا به ثم بعث ملائكة فقال: ابنوا في الأرض بيتاً بمثال وقدره وأمر من في الأرض أن يطوفوا بالبيت، وفي كتاب العيَّاشي بإسناده عن الصادق(ع) قال: أن الله أنزل الحجر الأسود من الجنة لآدم، وكان البيت درة بيضاء فرفعه الله تعالى إلى السماء، وبقي أساسه فهو حيال هذا البيت، وقال: يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يرجعون إليه أبداً فأمر الله سبحانه إبراهيم وإسماعيل أن يبنيا البيت على القواعد، وعن أمير المؤمنين (ع) أن أول شيء نزل من السماء إلى الأرض لهو البيت الذي بمكة أنزله الله ياقوتة حمراء ففسق قوم نوح في الأرض فرفعه، وقوله: ﴿ وَإِسۡمَٰعِيلُ ﴾ أي: يرفع إبراهيم وإسماعيل أساس الكعبة يقولان ربنا تقبل منا، وفي حرف عبد الله بن مسعود ويقولان ربنا تقبل منا، ومثله قوله سبحانه: ﴿ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم ﴾الرعد: ٢٣ - ٢٤ أي: يقولون سلام عليكم والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم أي: يقولون، وقال:

بعضهم تقديره يقول ربنا برده إلى إبراهيم (ع) قال: لأن إبراهيم وحده رفع القواعد من البيت، وكان إسماعيل صغيراً في وقت رفعها، وهو شاذ غير مقبول لشذوذه، فإن الصحيح أن إبراهيم وإسماعيل كانا يبنيان الكعبة جميعاً، وقيل: كان إبراهيم يبني وإسماعيل يناوله الحجر فوصفا بأنهما رفعا البيت عن ابن عباس، وفي قوله: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ دليل على أنهما بنيا الكعبة مسجدا لا مسكنا لأنهما التمسا الثواب عليه والثواب إنما يطلب على الطاعة ومعنى: ﴿تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ أثبنا على عمله، وهو مشبه بقبول الهدية فإن الملك إذا قبل الهدية من إنسان أثابه على ذلك، وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: أنت السميع لدعائنا العليم بنا وبما يصلحنا، وروي عن الباقر(ع): أن إسماعيل أول من شق لسانه بالعربية، وكان أبوه يقول له: وهما يبنيان البيت يا إسماعيل هات ابن أي: أعطني حجراً، فيقول له إسماعيل بالعربية يا أبة هاك حجراً فإبراهيم يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، وفي هذه الآية دلالة على أن الدعاء عند الفراغ من العبادة مرغب فيه مندوب إليه كما فعله إبراهيم وإسماعيل (ع).

قصة مهاجرة إسماعيل وهاجر

روى علي بن إبراهيم بن هاشم عن أبيه عن النضر بن سويد عن هشام عن الصادق(ع) قال: إِنْ إبراهيم كان نازلاً في بادية الشام فلما ولد له من هاجر إسماعيل اغتمت سارة من ذلك غماً شديداً لأنه لم يكن له منها ولد، فكانت تؤذي إبراهيم في هاجر وتغمه فشكا ذلك إبراهيم إلى الله عزَّ وجلَّ فأوحى الله إليه إنما مثل المرأة مثل الضلع المعوج إِنْ تركته استمتعت به، وإِنْ رمت أن تقيمه كسرته وقد قال القائل في ذلك :

هي الضلع العوجاء لست تقيمها ألا إِنْ تقويم الضلوع انكسارها

ثم أمره أن يخرج إسماعيل وأمه عنها فقال أي: رب إلى أي مكان قال إلى حرمي وأمني وأول بقعة خلقتها من أرضي وهي مكة، وأنزل عليها جبرائيل بالبراق فحمل

هاجر وإسماعيل وإبراهيم فكان إبراهيم لا يمر بموضع حسن فيه شجر ونخل وزرع إلاَّ قال: يا جبرائيل إلى ههنا إلى ههنا فيقول جبرائيل لا امض لا امض حتى وافى مكة فوضعه في موضع البيت، وقد كان إبراهيم عاهد سارة أن لا ينزل حتى يرجع إليها فلما نزلوا في ذلك المكان كان فيه شجر فألقت هاجر على ذلك الشجر كساء كان معها، فاستظلت تحته فلما سرحهم إبراهيم ووضعهم، وأراد الانصراف عنهم إلى سارة قالت له: هاجر لم تدعنا في هذا الموضع الذي ليس فيه أنيس ولا ماء ولا زرع فقال إبراهيم: ربي الذي أمرني أن أضعكم في هذا المكان ثم انصرف عنهم فلما بلغ كدى، وهو جبل بذي طوى التفت إليهم إبراهيم فقال: ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع إلى قوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ثم مضى وبقيت هاجر فلما ارتفع النهار عطش إسماعيل فقامت هاجر في الوادي حتى صارت في موضع المسعى فنادت هل في الوادي من أنيس؟ فغاب عنها إسماعيل فصعدت على الصفا ولمع لها السراب في الوادي، وظنت أنه ماء فنزلت في بطن الوادي، وسعت فلما بلغت المروة غاب عنها إسماعيل ثم لمع لها السراب في ناحية الصفا، وهبطت إلى الوادي تطلب الماء، فلما غاب عنها إسماعيل عادت حتى بلغت الصفا فنظرت إلى إسماعيل حتى فعلت ذلك سبع مرات فلما كان في الشوط السابع، وهي على المروة نظرت إلى إسماعيل وقد ظهر الماء من تحت رجليه، فعدت حتى جمعت حوله رملاً، وأنه كان سائلاً فزمته بما جعلت حوله، فلذلك سميت زمزم، وكانت جرهم نازلة بذي المجاز، وعرفات فلما ظهر الماء بمكة عكفت الطير والوحوش على الماء، فنظرت جرهم إلى تعكف الطير على ذلك المكان فاتبعوها حتى نظروا إلى امرأة وصبي نزول في ذلك الموضع قد استظلوا بشجرة قد ظهر لهم الماء فقال لهم: جرهم من أنت، وما شأنك وشأن هذا الصبي قالت: أنا أم ولد إبراهيم خليل الرحمن (ع) وهذا ابنه أمره الله أن ينزلنا ههنا فقالوا لها: أ تأذنين أن نكون بالقرب منكم، فقالت: حتى أسأل إبراهيم، قال: فزارهما إبراهيم يوم الثالث، فقالت له: هاجر يا خليل الله إنْ ههنا قوماً من جرهم يسألونك أن تأذن لهم حتى يكونوا بالقرب منا أ فتأذن لهم

في ذلك؟ فقال إبراهيم : نعم . فأذنت هاجر لجرهم فنزلوا بالقرب منهم، وضربوا خيامهم، وأنست هاجر وإسماعيل بهم فلما زارهم إبراهيم في المرة الثانية، ونظر إلى كثرة الناس حولهم سر بذلك سروراً شديداً، فلما تحرك إسماعيل، وكانت جرهم قد وهبوا لإسماعيل كل واحد منهم شاة وشاتين، وكانت هاجر وإسماعيل يعيشان بها، فلما بلغ مبلغ الرجال أمر الله تعالى إبراهيم أن يبني البيت، فقال: يا رب في أي بقعة قال: في البقعة التي أنزلت على آدم القبة فأضاءت الحرم، قال: ولم تزل القبة التي أنزلها الله على آدم قائمة حتى كان أيام الطوفان في زمان نوح، فلما غرقت الدنيا رفع الله تلك القبة ، وغرقت الدنيا ولم تغرق مكة، فسمي البيت العتيق؛ لأنه أعتق من الغرق، فلما أمر الله عزَّ وجلَّ إبراهيم أن يبني البيت لم يدر في أي مكان يبنيه، فبعث الله جبرائيل فخط له موضع البيت، وأنزل عليه القواعد من الجنة، وكان الحجر الذي أنزله الله على آدم أشد بياضاً من الثلج، فلما مسته أيدي الكفار أسود قال فبنى إبراهيم البيت، ونقل إسماعيل الحجر من ذي طوى، فرفعه في السماء تسعة أذرع، ثم دله على موضع الحجر، فاستخرجه إبراهيم ووضعه في موضعه الذي هو فيه، وجعل له بابين باباً إلى المشرق وباباً إلى المغرب، فالباب الذي إلى المغرب يسمى المستجار، ثم ألقى عليه الشيح والإذخر، وعلقت هاجر على بابه كساء كان معها فكانوا يكونون تحته، فلما بناه وفرغ حج إبراهيم وإسماعيل ونزل عليهما جبرائيل يوم التروية لثمان خلت من ذي الحجة فقال: يا إبراهيم قم فارتو من الماء؛ لأنه لم يكن بمنى وعرفات ماء فسميت التروية لذلك، ثم أخرجه إلى منى فبات بها ففعل به ما فعل بآدم فقال: إبراهيم لما فرغ من بناء البيت رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات .

﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾

المعنى: ثم ذكر تمام دعائهما (ع) فقال سبحانه :﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ ﴾أي:

قال: ربنا واجعلنا مسلمين في مستقبل عمرنا كما جعلتنا مسلمين في ماضي عمرنا بأن توفقنا وتفعل بنا الألطاف التي تدعونا إلى الثبات على الإسلام ويجري ذلك مجرى أن يؤدب أحدنا ولده ويعرضه لذلك حتى صار أديباً فيجوز أن يقال جعل ولده أديباً، وعكس ذلك إذا عرضه للبلاء والفساد جاز أن يقال جعله ظالماً فاسداً، وقيل: أن معنى مسلمين موحدين مخلصين لك لا نعبد إلاَّ إياك ولا ندعو رباً سواك، وقيل: قائمين بجميع شرائع الإسلام مطيعين لك؛ لأن الإسلام هو الطاعة والإنقياد والخضوع، وترك الإمتناع، وقوله: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ أي: واجعل من ذريتنا أي: من أولادنا، ومن للتبعيض، وإنما خصا بعضهم؛ لأنه تعالى أعلم إبراهيم (ع) أن في ذريته من لا ينال عهده الظالمين لما يرتكبه من الظلم، وقال السدي: أراد بذلك العرب ، والصحيح الأول أمة مسلمة لك أي: جماعة موحدة منقادة لك يعني أمة محمد (ص) بدلالة قوله: ﴿ وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾، وروي عن الصادق (ع): أن المراد بالأمة بنو هاشم خاصة. وقوله: ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ أي: عرفنا هذه المواضع التي تتعلق النسك بها لنفعله عندها ونقضي عباداتنا فيها على حد ما يقتضيه توفيقنا عليها قال قتادة فاراهما الله مناسكهما الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة والإفاضة من عرفات ومن جمع ورمي الجمار حتى أكمل بها الدين، وقال عطاء ومجاهد: معنى مناسكنا مذابحنا، والأول أقوى. وقوله: ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَآ ﴾ فيه وجوه أحدها: أنهما قالا هذه الكلمة على وجه التسبيح والتعبد والانقطاع إلى الله سبحانه ليقتدي بهما الناس فيها وهذا هو الصحيح . وثانيها: أنهما سألا التوبة على ظلمة ذريتهما. وثالثها: أن معناه ارجع إلينا بالمغفرة والرحمة وليس فيه دلالة على جواز الصغيرة عليهم، أو ارتكاب القبيح منهم ؛ لأن الدلائل القاهرة قد دلت على أن الأنبياء معصومون منزهون عن الكبائر والصغائر ، وليس هنا موضع بسط الكلام في ذلك ﴿ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي: القابل للتوبة من عظائم الذنوب، وقيل: الكثير القبول للتوبة مرة بعد أخرى ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ بعباده المنعم عليهم بالنعم العظام ، وتكفير السيئات والآثام، وفي هذه الآية دلالة على أنه يحسن الدعاء بما يعلم الداعي

أنه يكون لا محالة لأنهما كانا عالمين بأنهما لا يُفارقان الذنوب والآثام ولا يفارقان الدين والإسلام .

﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩ ﴾

المعنى: الضمير في قوله: ﴿ فِيهِمۡ ﴾ يرجع إلى الأمة المسلمة التي سأل الله إبراهيم أن يجعلهم من ذريته والمعني به بقوله ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ ﴾ هو نبينا (ص) لما روي عنه أنه قال: أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى (ع) يعني: قوله: ﴿ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ ﴾ الصف: ٦.، وهو قول الحسن وقتادة وجماعة من العلماء، ويدل على ذلك أنه دعا بذلك لذريته الذين يكونون بمكة، وما حولها على ما تضمنه الآية في قوله: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ ﴾ أي: في هذه الذرية ﴿ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ ﴾ ولم يبعث الله من هذه صورته إلاَّ محمداً (ص) ، وقوله: ﴿ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ ﴾ أي: يقرأ عليهم آياتك التي نوحي بها إليه ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ أي: القرآن، وهذا لا يعد من التكرار، لأنه خص الأول بالتلاوة ليعلموا بذلك أنه معجز دال على صدقه ونبوته وخص الثاني بالتعليم ليعرفوا ما يتضمنه من التوحيد وأدلته وما يشتمل عليه من أحكام شريعته، وقوله: ﴿ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ قيل: هي ههنا السنة عن قتادة. وقيل: المعرفة بالدين والفقه في التأويل عن مالك بن أنس. وقيل: العلم بالأحكام التي لا يدرك علمها إلاَّ من قبل الرسل عن ابن زيد. وقيل: أنه صفة للكتاب كأنه وصفه بأنه كتاب، وأنه حكمة وأنه آيات. وقيل: الحكمة شيء يجعله الله في القلب ينوره الله به كما ينور البصر فيدرك المبصر، وقيل: هي مواعظ القرآن وحرامه وحلاله عن مقاتل وكل حسن، وقوله: ﴿ وَيُزَكِّيهِمۡ ﴾ أي: يجعلهم مطيعين مخلصين والزكاء هو الطاعة والإخلاص لله سبحانه عن ابن عباس. وقيل: معناه يطهرهم من الشرك، ويخلصهم منه عن ابن جريج . وقيل : معناه يستدعيهم إلى فعل ما يزكون به من الإيمان والصلاح عن الجبائي. وقيل: يشهد لهم بأنهم أذكياء يوم القيامة إذا

شهد على كل نفس بما كسبت عن الأصم. وقوله:﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي: القوي في كمال قدرتك المنيع في جلال عظمتك المحكم لبدائع صنعتك، وإنما ذكر هاتين الصفتين لاتصالهما بالدعاء فكأنه قال فزعنا إليك في دعائنا لأنك القادر على إجابتنا العالم بما في ضمائرنا وبما هو أصلح لنا مما لا يبلغه كنه علمنا وقصار بصائرنا، وفي هذه الآية دلالة على أن إبراهيم وإسماعيل (ع) دعوا لنبينا محمد (ص) بجميع شرائط النبوة، لأن تحت التلاوة الأداء، وتحت التعليم البيان ، وتحت الحكمة السنة، ودعوا لأمته باللطف الذي لأجله تمسكوا بكتابه وشرعه، فصاروا أذكياء وهذا لأن الدعاء صدر من إسماعيل (ع) فعلم بذلك أن النبي المدعو به من ولده لا من ولد إسحاق ولم يكن في ولد إسماعيل نبي غير نبينا (ص) سيد الأنبياء.

. القرطبي:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾: ﴿ جَعَلْنَا ﴾ بمعنى صيّرنا لتعدّيه إلى مفعولين، وقد تقدم. ﴿ ٱلْبَيْتَ ﴾ يعني الكعبة ﴿ مَثَابَةً ﴾ أي مرجعاً؛ يقال: ثاب يثوب مثاباً ومثابة وثؤوباً وثوَباناً. فالمثابة مصدر وصف به ويراد به الموضع الذي يُثاب إليه؛ أي يرجع إليه.

والأصل مثوبة، قلبت حركة الواو على الثاء فقلبت الواو ألفاً إتباعاً لثاب يثوب. وانتصب على المفعول الثاني، ودخلت الهاء للمبالغة لكثرة من يثوب أي يرجع؛ لأنه قلّ ما يفارق أحد البيت إلا وهو يرى أنه لم يقضِ منه وطراً؛ فهي كنسّابة وعلاّمة قاله الأخفش. وقال غيره: هي هاء تأنيث المصدر وليست للمبالغة.

فإن قيل: ليس كل من جاءه يعود إليه؛ قيل: ليس يختص بمن ورد عليه، وإنما المعنى أنه لا يخلو من الجملة، ولا يعدم قاصداً من الناس؛ والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَأَمْنًا ﴾ استدل به أبو حنيفة وجماعة من فقهاء الأمصار على

ترك إقامة الحد في الحرم على المحصن والسارق إذا لجأ إليه؛ وعضدوا ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ آل عمران: ٩٧ كأنه قال: آمنوا من دخل البيت. والصحيح إقامة الحدود في الحرم، وأن ذلك من المنسوخ؛ لأن الاتفاق حاصل أنه لا يقتل في البيت، ويقتل خارج البيت. وإنما الخلاف هل يقتل في الحرم أم لا؟ والحرم لا يقع عليه اسم البيت حقيقة وقد أجمعوا أنه لو قتل افي الحرم قُتل به، ولو أتى حداً أقيد منه فيه، ولو حارب فيه حورب وقُتل مكانه. وقال أبو حنيفة: من لجأ إلى الحرم لا يقتل فيه ولا يتابع، ولا يزال يضيّق عليه حتى يموت أو يخرج. فنحن نقتله بالسيف، وهو يقتله بالجوع والصد؛ فأي قتل أشد من هذا. وفي قوله: ﴿وَأَمْنًا﴾ تأكيد للأمر باستقبال الكعبة؛ أي ليس في بيت المقدس هذه الفضيلة، ولا يحج إليه الناس، ومن استعاذ بالحرم أمن من أن يُغار عليه. وسيأتي بيان هذا في (المائدة) إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾.

﴿وَٱتَّخِذُواْ﴾: قرأ نافع وابن عامر بفتح الخاء على جهة الخبر عمن اتخذه من متّبعي إبراهيم، وهو معطوف على ﴿جَعَلْنَا﴾ أي جعلنا البيت مثابة واتخذوه مصلّى. وقيل هو معطوف على تقدير إذ، كأنه قال: وإذ جعلنا البيت مثابة وإذ اتخذوا، فعلى الأول الكلام جملة واحدة، وعلى الثاني جملتان. وقرأ جمهور القراء ﴿وَٱتَّخِذُواْ﴾ بكسر الخاء على جهة الأمر، قطعوه من الأول وجعلوه معطوفاً جملة على جملة.

قال المهدوي: يجوز أن يكون معطوفاً على ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾ كأنه قال ذلك اليهود، أو على معنى إذ جعلنا البيت؛ لأن معناه اذكروا إذ جعلنا. أو على معنى قوله: ﴿مَثَابَةً﴾ لأن معناه توبوا.

قوله تعالى: ﴿مِن مَّقَامِ﴾ المقام في اللغة: موضع القدمين. قال النحاس: (مقام) من قام يقوم، يكون مصدراً واسماً للموضع. ومُقام من أقام.

قوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ

﴿ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾:

﴿ وَعَهِدْنَآ ﴾: قيل معناه أمرنا. وقيل: أوحينا ﴿ أَن طَهِّرَا ﴾ (أن) في موضع نصب على تقدير حذف الخافض. وقال سيبويه: إنها بمعنى أي مفسّرة، فلا موضع لها من الإعراب. وقال الكوفيون: تكون بمعنى القول. و﴿ طَهِّرَا ﴾ قيل معناه: من الأوثان، عن مجاهد والزهري. وقال عبيد بن عمير وسعيد بن جبير: من الآفات والرّذائل: وقيل: من الكفار. وقال السدي: ابنياه وأسّساه على طهارة ونية طهارة؛ فيجيء مثل قوله: ﴿ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ ﴾التوبة: ١٠٨ وقال يمان: بَخِّراه وخلقاه. ﴿ بَيْتِيَ ﴾ بفتح الياء، والآخرون بإسكانها.

قوله تعالى: ﴿ لِلطَّآئِفِينَ ﴾ ظاهره الذين يطوفون به؛ وهو قول عطاء. وقال سعيد بن جبير: معناه للغرباء الطارئين على مكة؛ وفيه بعد. ﴿ وَٱلْعَٰكِفِينَ ﴾ المقيمين من بلدي وغريب، عن عطاء. وكذلك قوله: ﴿ لِلطَّآئِفِينَ ﴾. والعكوف في اللغة: اللزوم والإقبال على الشيء. قال مجاهد العاكفون المجاورون. ابن عباس: المصلون. وقيل: الجالسون بغير طواف؛ والمعنى متقارب. ﴿ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ أي المصلون عند الكعبة. وخصّ الركوع والسجود بالذكر؛ لأنهما أقرب أحوال المصلي إلى الله تعالى. وقد تقدم معنى الركوع والسجود لغة والحمد لله.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ يعني مكة؛ فدعا لذريته وغيرهم بالأمن ورغد العيش. فروى أنه لما دعا بهذا الدعاء أمر الله تعالى جبريل فاقتلع الطائف من الشام فطاف بها حول البيت أسبوعاً فسميت الطائف لذلك، ثم أنزلها تِهامة؛ وكانت مكة وما يليها حين ذلك قفراً لا ماء ولا نبات، فبارك الله فيما حولها كالطائف وغيرها، وأنبت فيها أنواع الثمرات، على ما يأتي بيانه في سورة (إبراهيم) إن شاء الله تعالى.

اختلف العلماء في مكة هل صارت حرماً آمناً بسؤال إبراهيم أو كانت قبله كذلك

على قولين: أحدهما: أنها لم تزل حرماً من الجبابرة المسلّطين، ومن الخسوف والزلازل، وسائر المُثُلات التي تحل بالبلاد، وجعل في النفوس المتمردة من تعظيمها والهيبة لها ما صار به أهلها متميزين بالأمن من غيرهم من أهل القرى. ولقد جعل فيها سبحانه من العلامة العظيمة على توحيده ما شوهد من أمر الصيد فيها؛ فيجتمع فيها الكلب والصيد فلا يهيج الكلب الصيد ولا ينفر منه. حتى إذا خرجا من الحرم عدا الكلب عليه وعاد إلى النفور والهرب.

وإنما سأل إبراهيم ربه أن يجعلها آمنةً من القحط والجدب والغارات، وأن يرزق أَهلها من الثمرات؛ لا على ما ظنه بعض الناس أنه المنع من سفك الدم في حق من لزمه القتل، فإن ذلك يبعد كونه مقصوداً لإبراهيم (ص) حتى يقال: طلب من الله أن يكون في شرعة تحريم قتل من التجأ إلى الحرم؛ هذا بعيد جداً.

الثاني: أن مكة كانت حلالاً قبل دعوة إبراهيم عليه السلام كسائر البلاد، وأن بدعوته صارت حرماً آمناً كما صارت المدينة بتحريم رسول الله (ص) أمناً بعد أن كانت حلالاً.

قوله تعالى: ﴿ وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ ﴾ تقدم معنى الرزق. والثمرات جمع ثمرة وقد تقدم. ﴿ مَنۡ ءَامَنَ ﴾ بدل من أهل، بدل البعض من الكل. والإيمان: التصديق، وقد تقدم. ﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ ﴾ (من) في قوله: ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ في موضع نصب؛ والتقدير وارزق من كفر، ويجوز أن يكون في موضع رفع بالابتداء، وهي شرط والخبر ﴿ فَأُمَتِّعُهُۥ ﴾ وهو الجواب.

﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ ﴾ القواعد: أساسه؛ في قول أبي عبيدة والفراء. وقال الكسائي: هي الجدر. والمعروف أنها الأساس. وفي الحديث: «إن البيت لما هدم أخرجت منه حجارة عظام» فقال ابن الزبير: هذه

القواعد التي رفعها إبراهيم عليه السلام. وقيل: إن القواعد كانت قد اندرست فأطلع الله إبراهيم عليها. ابن عباس: وضع البيت على أركان رآها قبل أن تخلق الدنيا بألفي عام ثم دحيت الأرض من تحته. والقواعد واحدتها قاعدة. والقواعد من النساء واحدها قاعد. واختلف الناس في مَنْ بنى البيت أولاً وأسّسه؛ فقيل: الملائكة.

روي عن جعفر بن محمد قال: سئل أبي وأنا حاضر عن بدء خلق البيت فقال: إن الله عز وجل لما قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة: ٣٠ قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ٣٠ فغضب عليهم؛ فعادوا بعرشه وطافوا حوله سبعة أشواط يسترضون ربهم حتى رضي الله عنهم، وقال لهم: ابنوا لي بيتاً في الأرض يتعوذ به من سخطت عليه من بني آدم، ويطوف حوله كما طفتم حول عرشي، فأرضى عنه كما رضيت عنكم؛ فبنوا هذا البيت.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ المعنى: ويقولان (ربنا) فحذف. وكذلك هي في قراءة أبيّ وعبدالله بن مسعود: «وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ويقولان ربنا تقبل منا». وتفسير إسماعيل: اسمع يا الله؛ لأن (إيل) بالسّريانية هو الله؛ وقد تقدم. فقيل: إن إبراهيم لما دعا ربه قال: إسمع يا إيل، فلما أجابه ربه ورزقه الولد سمّاه بما دعاه. ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ إسمان من أسماء الله تعالى قد أتينا عليهما في الكتاب (الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى).

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ أي صيّرنا، و(مسلمين) مفعول ثان، سألا التثبيت والدوام. والإسلام في هذا الموضع: الإيمان والأعمال جميعاً؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ آل عمران: ١٩ ففي هذا دليل لمن قال: إن الإيمان

والإسلام شيء واحد؛ وعضدوا هذا بقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾الذاريات: ٣٥ - ٣٦. وقرأ ابن عباس وعوف الأعرابي (مسلمَين) على الجمع.

قوله تعالى: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾أي ومن ذريتنا فاجعل؛ فيقال: إنه لم يدع نبي إلا لنفسه ولأمته إلا إبراهيم فإنه دعا مع دعائه لنفسه ولأمته ولهذه الأمة. و(من) في قوله ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ ﴾ للتبعيض، لأن الله تعالى قد كان أعلمه أن منهم ظالمين. وحكى الطبري: أنه أراد بقوله﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ ﴾ العرب خاصة. قال السهيلي: وذريتهما العرب؛ لأنهم بنو نَبْتِ بن إسماعيل، أو بنو تيمن بن إسماعيل، ويقال: قيدَرْ بن نبت بن إسماعيل. أما العدنانية فمن نبت، وأما القحطانية فمن قيدر بن نبت بن إسماعيل، أو تيمن على أحد القولين. قال ابن عطية: وهذا ضعيف؛ لأن دعوته ظهرت في العرب وفي مَنْ آمن من غيرهم. والأمة: الجماعة هنا، وتكون واحداً إذا كان يقتدى به في الخير؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا ﴾النحل: ١٢٠، وقال (ص) في زيد بن عمرو بن نفيل: «يبعث أمة وحده» لأنه لم يشرك في دينه غيره، والله أعلم.

وقد يطلق لفظ الأمة على غير هذا المعنى، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾الأنبياء: ٩٢. وقد تكون بمعنى الحين والزمان؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾يوسف: ٤٥، أي بعد حين وزمان. ويقال: هذه أمة زيد، أي أم زيد. والأمة أيضاً: القام؛ يقال: فلان حسن الأمة؛ أي حسن القامة.

قوله تعالى: ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ (أرنا) من رؤية البصر، فتتعدى إلى مفعولين، وقيل: في رؤية القلب؛ ويلزم قائله أن يتعدى الفعل منه إلى ثلاثة مفاعيل.

قوله تعالى: ﴿ مَنَاسِكَنَا ﴾ يقال: إن أصل النسك في اللغة الغسل، يقال منه نسك ثوبه إذا غسله وهو في الشرع اسم للعبادة؛ يقال: رجل ناسك إذا كان عابداً.

واختلف العلماء في المراد بالمناسك هنا؛ فقيل: مناسك الحج ومعالمه؛ قاله قُتادة والسدي. وقال مجاهد وعطاء وابن جريج: المناسك المذابح؛ أي مواضع الذبح. وقيل:

جميع المتعبّدات. وكل ما يتعبّد به إلى الله تعالى يقال له منسَك ومنسِك والناسك: العابد. قال النحاس: يقال نسَك ينسُك مكان يجب أن يقال على هذا: منسُك، إلا أنه ليس في كلام العرب مفعُل.

قوله تعالى: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾ اختلف في معنى قول إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: (وتب علينا) وهم أنبياء معصومون؛ فقالت طائفة: طلبا التثبيت والدوام، لا أنهما كان لهما ذنب.

قلت: وهذا حسن، وأحسن منه أنهما لما عرفا المناسك وبنيا البيت أرادا أن يبيّنا للناس ويعرفاهم أن ذلك الموقف وتلك المواضع مكان التنصل من الذنوب وطلب التوبة. وقيل: المعنى وتب على الظلمة منا. وقد مضى الكلام في عصمة الأنبياء عليهم السلام في قصة آدم (ع)، وتقدم القول في معنى قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فأغنى عن إعادته.

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ يعني محمداً (ص). وفي قراءة أبيّ «وابعث في آخرهم رسولاً منهم». وقد روى خالد بن معدان: أن نفراً من أصحاب النبي (ص) قالوا له: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك، قال: «نعم أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى». و(رسولاً) أي مرسلاً، وهو مفعول من الرسالة. قال ابن الأنباري: يشبه أن يكون أصله من قولهم: ناقة مرسال ورسّلة؛ إذا كانت سهلة السير ماضية أمام النّوق. ويقال للجماعة المهملة المرسَلة: رَسَلٌ، وجمعه أرسال. ويقال: جاء القوم أرسالاً أي بعضهم في أثر بعض؛ ومنه يقال للّبن رِسْلٌ، لأنه يرسل من الضرع.

قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ (الكتاب): القرآن. و(الحكمة): المعرفة بالدّين، والفقه في التأويل، والفهم الذي هو سجيّة ونور من الله تعالى، قاله مالك، ورواه عنده ابن وهب، وقاله ابن زيد. وقال قتادة: (الحُكمة) السُّنة وبيان الشرائع.

وقيل: الحكم والقضاء خاصة، والمعنى متقارب. ونُسب التعليم إلى النبي (ص) من حيث هو يعطي الأمور التي ينظر فيها، ويعلم طريق النظر بما يلقيه الله إليه من وحيه.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يطهّرهم من وضرَ الشوك، عن ابن جريج وغيره. والزكاة: التطهير، وقد تقدم. وقيل: إن الآيات تلاوة ظاهر الألفاظ. والكتاب معاني الألفاظ. والحكمة الحكم؛ وهو مراد الله بالخطاب من مطلق ومقيّد، ومفسّر ومجمّل، وعموم وخصوص، وهو معنى ما تقدم، والله تعالى أعلم. و﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَزَّنِي فِي الخِطَابِ﴾ [ص/٢٣]. وفي المثل: من عزّ بزّ أي من غلب سلب. وقيل: ﴿العَزِيزُ﴾ الذي لا مثل له؛ بيانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى/١١]. وقد زدنا هذا المعنى بياناً في اسمه العزيز في كتاب (الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) وقد تقدم معنى﴿الْحَكِيمُ﴾ والحمد لله.

- الشيرازي:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾.

بعد الإشارة إلى مكانة إبراهيم (ع) في الآية السابقة، تناولت هذه الآية موضوع عظمة الكعبة التي وضع قواعدها إبراهيم (ع)، فهي تبدأ بالتذكير بعبارة ((وَإِذْ)) أي أُذكروا: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾.

المثابة من الثوب، أي عودة الشيء إلى حالته الأُولى. ولما كانت الكعبة مركزاً يتجه إليه الموحدون كلّ عام، فهي محل لعودة جسمية وروحية إلى التوحيد والفطرة الأُولى، ومن هنا كانت مثابة. وكلمة ((مَثَابَةً)) تتضمن معنى الراحة والإستقرار، لأن بيت الإنسان ـ وهو محل عودته الدائم ــ مكان للراحة والإستقرار، وهذا المعنى تؤكده كلمة ((أَمْناً)) التي تلي كلمة ((مَثَابَةً)) في الآية. وكلمة ((لِلنَّاسِ)) توضح أنه ملجأ عام لكل العالمين، ولكل الشعوب المحرومة.

وهذه الصفة للبيت هي في الحقيقة استجابة لأحد مطاليب إبراهيم(ع) من ربّه ما سيأتي.

ثمّ تضيف الآية: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾.

اختلف المفسرون في معنى ((مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ))، قيل: إِنَّ كل الحج هو مقام إبراهيم. وقيل: إنه ((عَرفة)) و((المشعر الحرام)) و((الجمار الثلاث))، وقيل: كل حرم مكة مقام.

ولكن يبدو من ظاهر الآية أنْ المقام هو مقام إبراهيم المعروف الكائن قرب الكعبة، وذهبت إلى ذلك الرّوايات وكثير من المفسّرين. وعلى الحجاج أنْ يصلّوا خلفه بعد الطواف، ومن هنا كان هذا المقام ((مصلّى)).

ثم تشير الآية إلى المسؤولية المعهودة إلى إبراهيم وابنه إسماعيل(ع) بشأن تطهير البيت للطائفين والمجاورين والمصلين: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.

وفي التطهير قيل: إنه التطهير من لوثة وجود الأصنام. وقيل: إنه التطهير من الدنس الظاهر، كالدم وأحشاء الذبائح التي كان يلقي بها الجهلة في البيت.

وقيل: إنه يعني إخلاص النية عند بناء البيت.

ولا دليل على تحديد مفهوم الطهارة، فهي تعني تطهير هذا البيت ظاهرياً ومعنوياً من كل تلويث.

لذلك نجد بعض الروايات فسرت التطهير في الآية بأنه تطهير الكعبة من المشركين، وبعضها بأنه تطهير البدن وإزالة الأدران.

الكعبة ــ طبعاً للآية أعلاه ــ ملاذ وبيت آمن، والإسلام وضع الأحكام المشددة بشأن إبعاد هذه الأرض المقدسة عن كل نزاع واشتباك وحرب وإراقة دماء. وليس أفراد البشر آمنين هناك فحسب، بل الحيوانات والطيور آمنة أيضاً في هذه البقعة، ولا يحق لأحد أن يمسها بسوء.

وفي عالم يعجّ دوماً بالنزاع والصراع، يستطيع مثل هذا المركز الآمن أن يكون

له الأثر العميق في حل المشاكل وفضّ النزاعات، إذ يستطيع الفرقاء المتنازعون أنْ يجلسوا حول طاولة واحدة عند هذا البيت الآمن، ويفتحوا بينهم حواراً قد يكون مقدمة لإزالة الخصومات والنزاعات.

وقد يتفق أنْ ترغب الأطراف المتنازعة في إجراء مباحثات، لكنهم لا يتفقون على مكان مقبول ومحترم وآمن لدى جميع الأطراف، والإسلام أقرّ مكة لتكون مركزاً كهذا.

واليوم، إذ المسلمون ــ مع الأسف الشديد ــ يعانون من ألوان النزاعات والإختلافات حريّ بهم أن يستفيدوا من قداسة هذا البيت وأمنه لفتح باب المحادثات بينهم، ولرفع ما بينهم من اختلافات بفضل معنوية هذا المكان المقدس.

وصفت الكعبة بأنها بيت الله، وعبرت الآية عن الكعبة بـ((بَيْتِيَ)). وواضح أن الله ليس بجسم، ولا يحده بيت، ولا يحتاج إلى ذلك، وهذه الإضافة هي ((إضافة تشريفية)) تبيّن قدسية الشيء الذي ينسب إلى الله، ولذلك كان شهر رمضان ((شهر الله)) وكانت الكعبة ((بيت الله)).

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

في هذه الآية توجّه إبراهيم إلى ربّه بطلبين هامين لسكنة هذه الأرض المقدسة، أشرنا إلى أحدهما في الآية السّابقة. القرآن يذكّر بما قاله إبراهيم: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾.

وكما ذكرنا في الآية السابقة، استجاب الله لدعاء إبراهيم، وجعل هذه الأرض المقدسة مركزاً آمناً بالمعنى الواسع لكلمة لأمن.

والطلب الآخر هو: ﴿ وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾.

وهكذا يطلب إبراهيم ((الأمن)) أوّلاً، ثم ((المواهب الإقتصادية))، إشارة إلى أنّ الإقتصاد السالم لا يتحقق إلاّ بعد الأمن الكامل.

وللمفسرين آراء عديدة في معنى ((الثّمرات))، ويبدو أن معناها واسع يشمل

النعم المادية والنعم المعنوية. وعن الإمام الصادق(ع): ((هِيَ ثَمَرَاتُ الْقُلُوبِ)) إشارة إلى جعل قلوب النّاس تهوي إلى هذه الأرض.

إبراهيم في دعائه إقتصر على المؤمنين بالله واليوم الآخر، ولعل ذلك كان بعد أن قال له الله سبحانه: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِيَ الظَّالِمِينَ﴾ ففهم أنْ مجموعة من ذريّته سيسلكون طريق الشرك والظلم، فاستثناهم في دعائه.

والله سبحانه استجاب لإبراهيم طلبه الثاني أيضاً، ولكنه ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ في الدُّنيا، ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ في الحياة الآخرة.

هذه في الواقع صفة ((الرحمانية)) وهي الرحمة العامة للباري تعالى التي تشمل كل المخلوقات، صالحهم وطالحهم في الدنيا. أما الآخرة فهي عالم رحمته الخاصة التي لا ينالها إلاَّ من آمن وعمل صالحاً.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

نفهم بوضوح من خلال آيات الذكر الحكيم أنْ بيت الكعبة كان موجوداً قبل إبراهيم، وكان قائماً منذ زمن آدم. تتحدث الآية ٣٧ من سورة إبراهيم عن لسان إبراهيم تقول: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ إبراهيم:٣٧.

وهذه الآية تدل على أن بيت الكعبة كان له نوع من الوجود حين جاء إبراهيم مع زوجه وابنه الرضيع إلى مكة.

وتقول الآية ٩٦ من سورة آل عمران: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْت وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً﴾. ومن المؤكد أن عبادة الله وإقامة أماكن العبادة لم تبدأ في زمن إبراهيم، بل كانتا منذ أنْ خلق الإنسان على ظهر هذه الأرض.

عبارة الآية الأُولى من الآيات محل البحث يؤكد هذا المعنى، إذ تقول: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

فإبراهيم وإسماعيل قد رفعا قواعد البيت التي كانت موجودة.

وفي خطبة للإمام أمير المؤمنين علي (ع) في نهج البلاغة، وهي المسماة بالقاصعة، يقول:

((أَلاَ تَرَوْنَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ إِخْتَبَرَ الْأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِ إِلَى الْآخَرِينَ مِنْ هذَا الْعَالَم بِأَحْجَار ... فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ ... ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ(ع) وَوَلَدَهُ أَنْ يَثْنُوا أَعْطَافَهُمْ نَحْوَهُ...)).

القرائن القرآنية والروائية تؤيد أنْ الكعبة بنيت أوّلاً بيد آدم، ثم انهدمت في طوفان نوح، ثم أُعيد بناؤها على يد إبراهيم وإسماعيل.

في الآيتين التاليتين يتضرع إبراهيم وإسماعيل إلى ربّ العالمين بخمسة طلبات هامّة. وهذه الطلبات المقدّسة حين الإشتغال بإعادة بناء الكعبة جامعة ودقيقة بحيث تشمل كل احتياجات الإنسان المادية والمعنوية، وتفصح عن عظمة هذين النبيين الكبيرين.

قالا أوّلاً: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ ﴾.

ثم أضافا: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾.

وطلبا تفهم طريق العبادة: ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾، أنْ يعبدا الله حقّ عبادته.

ثم طلبا التوبة: ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

الآية الأخيرة تضمنت الطلب الخامس، وهو هداية الذرية﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

في الآيات أعلاه، بعد أن يطلب إبراهيم وإسماعيل من الله ظهور نبي الإسلام، يذكران ثلاثة أهداف لبعثته:

الأوّل: تلاوة آيات الله على النّاس، أي إيقاط الأفكار والأرواح في ظل الآيات

الإلهية المبشرة والمنذرة.

((يتلو)) من تلا، أي اتبع الشيء بالشيء، وسميت ((التلاوة)) كذلك لأنها قراءة وفق تتبع ونظم. هي مقدمة لليقظة والإعداد والتعليم والتربية.

الثّاني: ((تعليم الكتاب والحكمة)) ولا تتحقق التربية إلاَّ بالتعليم.

ولعل التفاوت بين ((الكتاب)) و((الحكمة)) في أنْ الكتاب يعني الكتب السماوية، والحكمة تعني العلوم والأسرار والعلل والنتائج الموجودة في الأحكام، وهي التي يعلمها النّبي أيضاً.

الثّالث: ((التزكية)) وهو الهدف الأخير.

و((التزكية)) في اللغة هي الإنماء، وهي التطهير أيضاً.

وبذلك يتلخص الهدف النهائي من بعثة الأنبياء في دفع الإنسان على مسيرة التكامل ((العلمي)) و((العملي)).

ويلزم التأكيد أيضاً على أنْ الشخصية البشرية تتكون من ((عقل)) و((غرائز))، ولذلك كان الإنسان بحاجة إلى ((التربية)) بقدر حاجته إلى ((العلم))، وينبغي أنْ يتكامل عقله، وأنْ تتجه غرائزه نحو هدف صحيح.

لذلك فإن الأنبياء معلمون، ومربون، يزودون النّاس بالعلم، وبالتربية.

- الفخر الرازي:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى بين كيفية حال إبراهيم (عليه السلام) حين كلفه بالإمامة، وهذا شرح التكليف الثاني، وهو التكليف بتطهير البيت، ثم نقول: أما البيت فإنه يريد البيت الحرام، واكتفى بذكر البيت مطلقاً لدخول الألف واللام عليه، إذا كانتا تدخلان لتعريف المعهود أو الجنس، وقد علم المخاطبون أنه لم يرد به الجنس فانصرف إلى المعهود عندهم وهو الكعبة، ثم نقول: ليس المراد نفس الكعبة، لأنه تعالى وصفه

بكونه ﴿ وَأَمْنًا ﴾وهذا صفة جميع الحرم لا صفة الكعبة فقط والدليل على أنه يجوز إطلاق البيت والمراد منه كل الحرم قوله تعالى: ﴿هَدْياً بَالِغَ الكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥] والمراد الحرم كله لا الكعبة نفسها، لأنه لا يذبح في الكعبة، ولا في المسجد الحرام وكذلك قوله: ﴿ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾التوبة: ٢٨، والمراد والله أعلم منعهم من الحج حضور مواضع النسك، وقال في آية أخرى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا ﴾العنكبوت: ٦٧، وقال الله تعالى في آية أخرى مخبراً عن إبراهيم: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾إبراهيم: ٣٥، فدل هذا على أنه وصف البيت بالأمن فاقتضى جميع الحرم، والسبب في أنه تعالى أطلق لفظ البيت وعنى به الحرم كله أن حرمة الحرم لما كانت معلقة بالبيت جاز أن يعبر عنه باسم البيت.

أما قوله تعالى: ﴿ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قال أهل اللغة: أصله من ثاب يثوب مثابة وثوباً إذا رجع يقال:ثاب الماء إذا رجع إلى النهر بعد انقطاعه، وثاب إلى فلان عقله أي رجع وتفرق عنه الناس، ثم ثابوا: أي عادوا مجتمعين.

المسألة الثانية: قال الحسن:معناه أنهم يثوبون إليه في كل عام، وعن ابن عباس ومجاهد: أنه لا ينصرف عنه أحد إلا وهو يتمنى العود إليه، قال الله تعالى: ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾إبراهيم: ٣٧، وقيل: مثابة أي يحجون إليه فيثابون عليه، فإن قيل: كون البيت مثابة يحصل بمجرد عودهم إليه، وذلك يحصل بفعلهم لا بفعل الله تعالى، فما معنى قوله: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ قلنا: أما على قولنا ففعل العبد مخلوق لله تعالى فهذه الآية حجة على قولنا في هذه المسألة، وأما على قول المعتزلة فمعناه أنه تعالى ألقى تعظيمه في القلوب ليصير ذلك داعياً لهم إلى العود إليه مرة بعد أخرى، وإنما فعل الله تعالى ذلك لما فيه من منافع الدنيا والآخرة، أما منافع الدنيا فلأن أهل المشرق والمغرب يجتمعون هناك، فيحصل هناك من التجارات وضروب المكاسب ما يعظم به النفع، وأيضاً فيحصل بسبب السفر إلى الحج عمارة الطريق والبلاد، ومشاهدة الأحوال المختلفة في الدنيا،

وأما منافع الدين فلأن من قصد البيت رغبة منه في النسك والتقرب إلى الله تعالى، وإظهار العبودية له، والمواظبة على العمرة والطواف، وإقامة الصلاة في ذلك المسجد المكرم والاعتكاف فيه، يستوجب بذلك ثواباً عظيماً عند الله تعالى.

أما قوله تعالى:﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وعاصم والكسائي: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ ﴾ بكسر الخاء على صيغة الأمر، وقرأ نافع وابن عامر بفتح الخاء على صيغة الخبر.

أما القراءة الأولى: فقوله: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ ﴾ عطف على ماذا، وفيه أقوال،الأول:أنه عطف على قوله: ﴿ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ البقرة: ١٢٢، ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾. الثاني: إنه عطف على قوله: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ ﴾ البقرة: ١٢٤،والمعنى أنه لما ابتلاه بكلمات وأتمهن، قال له جزاء لما فعله من ذلك: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وقال: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ ويجوز أن يكون أمر بهذا ولده، إلا أنه تعالى أضمر قوله وقال، ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ ﴾ الأعراف: ١٧١. الثالث: أن هذا أمر من الله تعالى لأمة محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، وهو كلام اعترض في خلال ذكر قصة إبراهيم (عليه السلام)، وكأن وجهه: ﴿ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ ﴾ أنتم من مقام إبراهيم مصلى والتقدير أنا لما شرفناه ووصفناه بكونه مثابة للناس وأمناً فاتخذوه أنتم قبلة لأنفسكم، والواو والفاء قد يذكر كل واحد منهما في هذا الوضع وإن كانت الفاء أوضح، أما من قرأ:﴿ وَٱتَّخِذُواْ ﴾ بالفتح فهو إخبار عن ولد إبراهيم أنهم اتخذوا من مقامه مصلى، فيكون هذا عطفاً على: ﴿ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ ﴾ واتخذوه مصلى، ويجوز أن يكون عطفاً على: ﴿ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ ﴾ وإذ اتخذوه مصلى.

المسألة الثانية: ذكروا أقوالاً في أن مقام إبراهيم (عليه السلام) أي شيء هو:

القول الأول: إنه موضع الحجر قام عليه إبراهيم (عليه السلام)، ثم هؤلاء ذكروا وجهين: أحدهما: أنه هو الحجر الذي كانت زوجة إسماعيل وضعته تحت قدم

إبراهيم (عليه السلام) حين غسلت رأسه فوضع إبراهيم (عليه السلام) رجله عليه وهو راكب فغسلت أحد شقي رأسه ثم رفعته من تحته وقد غاصت رجله في الحجر فوضعته تحت الرجل الأخرى فغاصت رجله أيضاً فيه فجعله الله تعالى من معجزاته وهذا قول الحسن وقتادة والربيع بن أنس. وثانيها: ما روي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن إبراهيم (عليه السلام) كان يبني البيت وإسماعيل يناوله الحجارة ويقولان: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾فلما ارتفع البنيان وضعف إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) عن وضع الحجارة قام على حجر وهو مقام إبراهيم (عليه السلام).

القول الثاني: أن مقام إبراهيم الحرم كله وهو قول مجاهد. الثالث: أنه عرفة والمزدلفة والجمار وهو قول عطاء. الرابع: الحج كله مقام إبراهيم وهو قول ابن عباس، واتفق المحققون على أن القول الأولى أولى ويدل عليه وجوه. الأول: ما روى جابر أنه (عليه السلام) لما فرغ من الطواف أتى المقام وتلا قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ فقراءة هذه اللفظة عند ذلك الموضع تدل على أن المراد من هذه اللفظة هو ذلك الموضع ظاهر. وثانيها: أن هذا الاسم في العرف مختص بذلك الموضع والدليل عليه أن سائلاً لو سأل المكي بمكة عن مقام إبراهيم لم يجبه ولم يفهم منه إلاّ هذا الموضع. وثالثها: ما روي أنه (عليه السلام) مرّ بالمقام ومعه عمر فقال: يا رسول الله أليس هذا مقام أبينا إبراهيم؟ قال: بلى. قال: أفلا نتخذه مصلى؟ قال: لم أومر بذلك، فلم تغب الشمس من يومهم حتى نزلت الآية. ورابعها: أن الحجر صار تحت قدميه في رطوبة الطين حتى غاصت فيه رجلا إبراهيم (عليه السلام)، وذلك من أظهر الدلائل على وحدانية الله تعالى ومعجزة إبراهيم (عليه السلام) فكان اختصاصه بإبراهيم أولى من اختصاص غيره به، فكان إطلاق هذا الاسم عليه أولى. وخامسها: أنه تعالى قال: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ وليس للصلاة تعلق بالحرم ولا بسائر المواضع إلاّ بهذا الموضع، فوجب أن يكون مقام إبراهيم هو هذا الموضع. وسادسها: أن مقام إبراهيم هو موضع قيامه، وثبت بالأخبار أنه

قام على هذا الحجر عند المغتسل ولم يثبت قيامه على غيره فحمل هذا اللفظ، أعني: مقام إبراهيم (عليه السلام) على الحجر يكون أولى قال القفال: ومن فسر مقام إبراهيم بالحجر خرج قوله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ على مجاز قول الرجل: اتخذت من فلان صديقاً وقد أعطاني الله من فلان أخاً صالحاً ووهب الله لي منك ولياً مشفقاً وإنما تدخل (من) لبيان المتخذ الموصوف وتميزه في ذلك المعنى من غيره والله أعلم.

أما قوله تعالى:﴿وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾ فالأولى أن يراد به ألزمناهما ذلك وأمرناهما أمراً وثقنا عليهما فيه وقد تقدم من قبل معنى العهد والميثاق.

أما قوله: ﴿أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ﴾ فيجب أن يراد به التطهير من كل أمر لا يليق بالبيت، فإذا كان موضع البيت وحواليه مصلى وجب تطهيره من الأنجاس والأقذار، وإذا كان موضع العبادة والإخلاص لله تعالى: وجب تطهيره من الشرك وعبادة غير الله. وكل ذلك داخل تحت الكلام ثم إن المفسرين ذكروا وجوهاً. أحدها: أن معنى: ﴿طَهِّرَا بَيۡتِيَ﴾ ابنياه وطهراه من الشرك وأسساه على التقوى، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ﴾التوبة: ١٠٩. وثانيها: عرفا الناس أن بيتي طهرة لهم متى حجوه وزاروه وأقاموا به، ومجازه: اجعلاه طاهراً عندهم، كما يقال: الشافعي رضي الله عنه يطهر هذا، وأبو حنيفة ينجسه. وثالثها: ابنياه ولا تدعا أحداً من أهل الريب والشرك يزاحم الطائفين فيه، بل أقراه على طهارته من أهل الكفر والريب، كما يقال: طهر الله الأرض من فلان، وهذه التأويلات مبنية على أنه لم يكن هناك ما يوجب إيقاع تطهيره من الأوثان والشرك، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾البقرة: ٢٥، فمعلوم أنهن لم يطهرن من نجس بل خلقن طاهرات، وكذا البيت المأمور بتطهيره خلق طاهراً، والله أعلم. ورابعها: معناه نظفا بيتي من الأوثان والشرك والمعاصي، ليقتدي الناس بكما في ذلك. وخامسها: قال بعضهم:إن موضع البيت قبل البناء كان يلقى فيه الجيف والأقذار فأمر الله تعالى إبراهيم بإزالة تلك القاذورات وبناء البيت هناك، وهذا ضعيف لأن قبل البناء ما كان البيت

موجوداً فتطهير تلك العرصة لا يكون تطهيراً للبيت، ويمكن أن يجاب عنه بأنه سماه بيتاً لأنه علم أن مآله إلى أن يصير بيتاً ولكنه مجاز.

أما قوله تعالى: ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: العكف مصدر عكف يعكف بضم الكاف وكسرها عكفاً إذا لزم الشيء وأقام عليه فهو عاكف، وقيل: إذا أقبل عليه لا يصرف عنه وجهه.

المسألة الثانية: في هذه الأوصاف الثلاثة قولان، الأول: وهو الأقرب أن يحمل ذلك على فرق ثلاثة، لأن من حق المعطوف أن يكون غير المعطوف عليه، فيجب أن يكون الطائفون غير العاكفين والعاكفون غير الركع السجود لتصح فائدة العطف، فالمراد بالطائفين: من يقصد البيت حاجاً أو معتمراً فيطوف به، والمراد بالعاكفين: من يقيم هناك ويجاور، والمراد بالركع السجود: من يصلي هناك. والقول الثاني: وهو قول عطاء: أنه إذا كان طائفاً فهو من الطائفين، وإذا كان جالساً فهو من العاكفين، وإذا كان مصلياً فهو من الرجع السجود.

المسألة الثالثة: هذه الآية، تدل على أمور. أحدها: أنا إذا فسرنا الطائفين بالغرباء فحينئذ تدل الآية على أن الطواف للغرباء أفضل من الصلاة، لأنه تعالى كما خصهم بالطواف دل على أن لهم به مزيد اختصاص. وروي عن ابن عباس ومجاهد وعطاء: أن الطواف لأهل الأمصار أفضل، والصلاة لأهل مكة أفضل.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾

اعلم أن هذا هو النوع الثالث من أحوال إبراهيم (عليه السلام) التي حكاها الله تعالى ههنا، قال القاضي: في هذه الآيات تقديم وتأخير، لأن قوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ لا يمكن إلاّ بعد دخول البلد في الوجود، والذي ذكره من بعد وهو قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾البقرة: ١٢٨، وإن كان متأخراً في التلاوة فهو متقدم في المعنى، وههنا مسائل:

المسألة الأولى: المراد من الآية دعاء إبراهيم للمؤمنين من سكان مكة بالأمن والتوسعة بما يجلب إلى مكة لأنها بلد لا زرع ولا غرس فيه، فلولا الأمن لم يجلب إليها من النواحي وتعذر العيش فيها. ثم إن الله تعالى أجاب دعاءه وجعله آمناً من الآفات، فلم يصل إليه جبار إلاّ قصمه الله كما فعل بأصحاب الفيل، وههنا سؤالان:

السؤال الأول: أليس أن الحجاج حارب ابن الزبير وخرب الكعبة وقصد أهلها بكل سوء وتم له ذلك؟

الجواب: لم يكن مقصوده تخريب الكعبة لذاتها، بل كان مقصوده شيئاً آخر.

السؤال الثاني: المطلوب من الله تعالى هو أن يجعل البلد آمناً كثير الخصب، وهذا مما يتعلق بمنافع الدنيا فكيف يليق بالرسول المعظم طلبها.

والجواب عنه من وجوه، أحدها: أن الدنيا إذا طلبت ليتقوى بها على الدين، كان ذلك من أعظم أركان الدين، فإذا كان البلد آمناً وحصل فيه الخصب تفرغ أهله لطاعة الله تعالى، وإذا كان البلد على ضد ذلك كانوا على ضد ذلك. وثانيها: أنه تعالى جعله مثابة للناس والناس إنما يمكنهم الذهاب إليه إذا كانت الطرق آمنة والأقوات هناك رخيصة. وثالثها: لا يبعد أن يكون الأمن والخصب مما يدعو الإنسان إلى الذهاب إلى تلك البلدة، فحينئذ يشاهد المشاعر المعظمة والمواقف المكرمة فيكون الأمن والخصب سبب اتصاله في تلك الطاعة.

المسألة الثانية: ﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾ يحتمل وجهين. أحدهما: مأمون فيه كقوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ الْجِبَالُ﴾ القارعة: ٧ أي مرضية. والثاني: أن يكون المراد أهل البلد كقوله: ﴿واسْئَلِ القَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أي أهلها وهو مجاز لأن الأمن والخوف لا يلحقان البلد.

المسألة الثالثة: اختلفوا في الأمن المسؤول في هذه الآية على وجوه. أحدها: سأله الأمن من القحط لأنه أسكن أهله بواد غير ذي زرع ولا ضرع. وثانيها: سأله الأمن من الخسف والمسخ. وثالثها: سأله الأمن من القتل وهو قول أبو بكر الرازي، واحتج عليه بأنه عليه السلام سأله الأمن أولاً، ثم سأله الرزق ثانياً، ولو كان الأمن المطلوب

هو الأمن من القحط لكان سؤال الرزق بعده تكراراً فقال في هذه الآية: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ابراهيم: ٣٥ ثم قال في آخر القصة: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ ﴾ابراهيم: ٣٧، إلى قوله: ﴿ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ابراهيم: ٣٧ واعلم أن هذه الحجة ضعيفة فإن لقائل أن يقول: لعل الأمن المسؤول هو الأمن من الخسف والمسخ، أو لعله الأمن من القحط، ثم الأمن من القحط قد يكون بحصول ما يحتاج إليه من الأغذية وقد يكون بالتوسعة فيها فهو بالسؤال الأول طلب إزالة القحط وبالسؤال الثاني طلب التوسعة العظيمة.

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾

﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾

اعلم أن هذا هو النوع الرابع: من الأمور التي حكاها الله تعالى عن إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام)، وهو أنهما عند بناء البيت ذكرا ثلاثة من الدعاء ثم ههنا مسائل:

المسألة الأولى: قوله:﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ ﴾ حكاية حال ماضية والقواعد جمع قاعدة وهي الأساس، والأصل لما فوقه، وهي صفة غالبة، ومعناها الثابتة، ومنه أقعدك الله أي أسأل الله أن يقعدك أي يثبتك ورفع الأساس البناء عليها، لأنها إذا بني عليها نقلت عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع وتطاولت بعد التقاصر ويجوز أن يكون المراد بها سافات البناء لأن كل ساف قاعدة للذي يبنى عليه ويوضع فوقه، ومعنى رفع القواعد رفعها بالبناء لأنه إذا وضع سافاً فوق ساف فقد رفع السافات والله

أعلم.

المسألة الثانية: الأكثرون من أهل الأخبار على أن هذا البيت كان موجوداً قبل إبراهيم عليه السلام على ما روينا من الأحاديث فيه واحتجوا بقوله﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ ﴾ فإن هذا صريح في أن تلك القواعد كانت موجودة متهدمة إلا أن إبراهيم عليه السلام رفعها وعمرها.

قوله: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ يفيد الحصر أي نكون مسلمين لك لا لغيرك وهذا يدل على أن كمال سعادة العبد في أن يكون مسلماً لاحكام الله تعالى وقضائه وقدره، وأن لا يكون ملتفت الخاطر إلى شيء سواه، وهذا هو المراد من قول إبراهيم (عليه السلام) في موضع آخر: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾الشعراء: ٧٧، ثم ههنا قولان: أحدهما: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ أي موحدين مخلصين لا نعبد إلاّ إياك. والثاني: قائمين بجميع شرائع الإسلام وهو الأوجه لعمومه.

المسألة الثالثة: أما إن العبد لا يخاطب الله تعالى وقت الدعاء إلاّ بقوله: ربنا فسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى في تفسير قوله: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾غافر: ٦٠ في شرائط الدعاء.

أما قوله تعالى: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾فالمعنى: واجعل من أولادنا (من) للتبعيض وخص بعضهم؛ لأنه تعالى أعلمهما أن في ذريتهما الظالم بقوله تعالى: ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ البقرة: ١٢٤، ومن الناس من قال: أراد به العرب لأنهم من ذريتهما، و﴿ عَلَيْنَآ أُمَّةً عَلَيْنَآ ﴾ قيل هم أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) بدليل قوله: ﴿وابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مّنْهُمْ﴾.

أما قوله تعالى:﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: في﴿ وَأَرِنَا ﴾ قولان،الأول: معناه علمنا شرائع حجنا إذ أمرتنا ببناء البيت لنحجه وندعوا الناس إلى حجه، فعلمنا شرائعه وما ينبغي لنا أن نأتيه فيه من عمل وقول مجاز هذا من رؤية العلم، قال الله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾الفرقان: ٤٥، ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾الفيل: ١ .

الثاني: أظهرها لأعيننا حتى نراها. قال الحسن: إن جبريل (عليه السلام) أرى إبراهيم المناسك كلها، حتى بلغ عرفات، فقال: يا إبراهيم أعرفت ما أريتك من المناسك؟ قال: نعم فسميت عرفات فلما كان يوم النحر أراد أن يزور البيت عرض له إبليس فسد عليه الطريق، فأمره جبريل (عليه السلام) أن يرميه بسبع حصيات ففعل، فذهب الشيطان ثم عرض له في اليوم الثاني والثالث والرابع: كل ذلك يأمره جبريل (عليه السلام) برمي الحصيات.

المسألة الثانية: النسك هو التعبد، يقال للعابد ناسك ثم سمي الذبح نسكاً والذبيحة نسيكة، وسمي أعمال الحج مناسك. قال (عليه السلام): « خذوا عني مناسككم لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا»

أما قوله:﴿ وَتُبْ عَلَيْنَآ ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: احتج من جوز الذنب على الأنبياء بهذه الآية قال: لأن التوبة مشروطة بتقدم الذنب، فلولا تقدم الذنب وإلاّ لكان طلب التوبة طلباً للمحال، وأما المعتزلة فقالوا: إنا نجوز الصغيرة على الأنبياء فكانت هذه التوبة توبة من الصغيرة، ولقائل أن يقول: إن الصغائر قد صارت مكفرة بثواب فاعلها وإذا صارت مكفرة فالتوبة عنها محال، لأن تأثير التوبة في إزالتها وإزالة الزائل محال.

وههنا أجوبة أخر تصلح لمن جوز الصغائر ولمن لم يجوزها، وهي من وجوه. أولها: يجوز أن يأتي بصورة التوبة تشدداً في الإنصراف عن المعصية، لأن من تصور نفسه بصورة النادم العازم على التحرز الشديد، كان أقرب إلى ترك المعاصي، فيكون ذلك لطفاً داعياً إلى ترك المعاصي، وثانيها: أن العبد وإن اجتهد في طاعة ربه فإنه لاينفك عن التقصير من بعض الوجوه: إما على سبيل السهو، أو على سبيل ترك الأولى، فكان هذا الدعاء لأجل ذلك. وثالثها: أنه تعالى لما أعلم إبراهيم (عليه السلام) أن في ذريته من يكون ظالماً عاصياً، لا جرم سأل ههنا أن يجعل بعض ذريته أمة مسلمة، ثم طلب منه أن يوفق أولئك العصاة المذنبين للتوبة فقال:﴿ وَتُبْ عَلَيْنَآ ﴾أي على المذنبين من ذريتنا، والأب المشفق على ولده إذا أذنب ولده فاعتذر الوالد

عنه فقد يقول: أجرمت وعصيت وأذنبت فاقبل عذري ويكون مراده: إن ولدي أذنب فاقبل عذره، لأن ولد الإنسان يجري مجرى نفسه، والذي يقوي هذا التأويل وجوه. الأول: ما حكى الله تعالى في سورة إبراهيم أنه قال: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ إبراهيم: ٣٥ - ٣٦ فيحتمل أن يكون المعنى: ومن عصاني فإنك قادر على أن تتوب عليه إن تاب، وتغفر له ما سلف من ذنوبه.

أما قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فقد تقدم ذكره.

وقوله: ﴿رَبَّنَا وابعث فِيهِمْ رَسُولاً مّنْهُمْ﴾ واعلم أنه لا شبهة في أن قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ يريد من أراد بقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾ لأنه المذكور من قبل ووصفه لذريته بذلك لا يليق إلاّ بأمة محمد (صلى الله عليه وسلم)، فعطف عليه بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ وهذا الدعاء يفيد كمال حال ذريته من وجهين. أحدهما: أن يكون فيهم رسول يكمل لهم الدين والشرع ويدعوهم إلى ما يثبتون به على الإسلام. والثاني: أن يكون ذلك المبعوث منهم لا من غيرهم لوجوه. أحدها: ليكون محلهم ورتبتهم في العز والدين أعظم، لأن الرسول والمرسل إليه إذا كانا معاً من ذريته، كان أشرف لطلبته إذا أجيب إليها. وثانيها: أنه إذا كان منهم فإنهم يعرفون مولده ومنشأه فيقرب الأمر عليهم في معرفة صدقه وأمانته. وثالثها: أنه إذا كان منهم كان أحرص الناس على خيرهم وأشفق عليهم من الأجنبي لو أرسل إليهم، إذا ثبت هذا فنقول: إذا كان مراد إبراهيم (عليه السلام) عمارة الدين في الحال وفي المستقبل، وكان قد غلب على ظنه أن ذلك إنما يتم ويكمل بأن يكون القوم من ذريته حسن منه أن يريد ذلك ليجتمع له بذلك نهاية المراد في الدين، وينضاف إليه السرور العظيم بأن يكون هذا الأمر في ذريته لأن لا عز ولا شرف أعلى من هذه الرتبة. وأما إن الرسول هو محمد (صلى الله عليه وسلم) فيدل عليه وجوه. أحدها: إجماع المفسرين وهو حجة. وثانيها: ما

روي عنه (عليه السلام) أنه قال: « أنا دعوة إبراهيم وبشارة عيسى» وأراد بالدعوة هذه الآية، وبشارة عيسى (عليه السلام) ما ذكر في سورة الصف من قوله: ﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ الصف: ٦. وثالثها: أن إبراهيم (عليه السلام) إنما دعا بهذا الدعاء بمكة لذريته الذين يكونون بها وبما حولها ولم يبعث الله تعالى إلى من بمكة وما حولها إلا محمداً (صلى الله عليه وسلم).

ـ الطباطبائي:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾، إشارة إلى تشريع الحج والأمن في البيت، والمثابة هي المرجع، من ثاب يثوب إذا رجع.

قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ كأنه عطف على قوله: ﴿ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً ﴾، بحسب المعنى، فإن قوله:﴿ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً ﴾، لما كان إشارة إلى التشريع كان المعنى وإذ قلنا للناس ثوبوا إلى البيت وحجوا إليه، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وربما قيل إن الكلام على تقدير القول، والتقدير: وقلنا اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، والمصلى اسم مكان من الصلوة بمعنى الدعاء أي اتخذوا من مقامه (عليه السلام) مكاناً للدعاء والظاهر أن قوله:﴿ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً ﴾ إلخ بمنزلة

التوطئة أشير به إلى مناط تشريع الصلاة ولذا لم يقل: وصلوا، في مقام إبراهيم، بل قال: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، فلم يعلق الأمر بالصلاة في المقام، بل علق على اتخاذ المصلى منه.

قوله تعالى: ﴿وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا﴾، العهد هو الأمر والتطهير إما تخليص البيت لعبادة الطائفين، والعاكفين، والمصلين، ونسكهم فيكون من الإستعارة بالكناية، وأصل المعنى: أن خلصا بيتي لعبادة العبّاد، وذلك تطهير وإما تنظيفه من الأقذار والكثافات الطارئة من عدم مبالات الناس، والركع السجود جمعاً راكع وساجد وكان المراد به المصلون.

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ﴾إبراهيم: ٣٥ هذا دعاء دعا به إبراهيم يسأل به الأمن على أهل مكة والرزق وقد أجيبت دعوته، وحاشا لله سبحانه أن ينقل في كلامه دعاء لا يستجيبه ولا يرده في كلامه الحق فيشتمل كلامه على هجاء لغو لغى به لاغ جاهل، وقد قال تعالى:﴿وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ﴾ ص: ٨٤، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾الطارق: ١٣ - ١٤ .

وقد نقل القرآن العظيم عن هذا النبي الكريم دعوات كثيرة دعا بها، وسألها ربه كدعائه لنفسه في بادئ أمره، ودعائه عند مهاجرته إلى سورية ودعائه ومسألته بقاء الذكر الخير، ودعائه لنفسه وذريته ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات، ودعائه لأهل مكة بعد بناء البيت، ودعائه ومسألته بعثة النبي من ذريته، ومن دعواته ومسائله التي تجسم آماله وتشخص مجاهداته ومساعيه في جنب الله وفضائل نفسه المقدسة، وبالجملة تعرف موقعه وزلفاه من الله عزّ اسمه، وسائر قصصه وما مدحه به ربه، يستنبط شرح حيوته الشريفة وسنتعرض للميسور من ذلك في سورة الأنعام.

قوله تعالى:﴿مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم﴾، لما سأل (عليه السلام) لبلد مكة الامن، ثم سأل لاهلة أن يرزقوا من الثمرات، استشعر: أن الأهل سيكون منهم مؤمنون، وكافرون ودعائه للأهل بالرزق يعم الكافر والمؤمن، وقد تبرأ من الكافرين وما يعبدونه، قال

تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ ﴾التوبة: ١١٤ ، فشهد تعالى له: بالبراءة والتبري عن كل عدو لله، حتى أبيه، ولذلك لما استشعر ما استشعره من عموم دعوته قيدها بقوله:﴿ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم ﴾ـ وهو يعلم أن رزقهم من الثمرات لا يتم من دون شركة الكافرين، على ما يحكم به ناموس الحياة الدنيوية الإجتماعية ـ غير أنه خص مسألته ـ والله أعلم ـ بما يحكم لسائر عباده، ويريد في حقهم، فأجيب (عليه السلام) بما يشمل المؤمن والكافر، وفيه بيان أن المستجاب من دعوته ما يجري على حكم العادة وقانون الطبيعة من غير خرق للعادة، وإبطال لظاهر حكم الطبيعة، ولم يقل: وارزق من آمن من أهلة من الثمرات لأن المطلوب استيهاب الكرامة للبلد لكرامة البيت المحرم، ولا ثمرة تحصل في واد غير ذي زرع، وقع فيه البيت، ولو لا ذلك لم يعمر البلد، ولا وجد أهلاً يسكنونه.

قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ﴾، قرئ فأمتعه من باب الإفعال والتفعيل والإمتاع والتمتيع بمعنى واحد.

قوله تعالى:﴿ ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ ﴾ إلخ، فيه إشارة إلى مزيد إكرام البيت وتطييب لنفس إبراهيم (عليه السلام)، كأنه قيل: ما سألته من إكرام البيت برزق المؤمنين من أهل هذا البلد استجبته وزيادة، ولا يغتر الكافر بذلك أن له كرامة على الله، وإنما ذلك إكرام لهذا البلد، وإجابة لدعوتك بأزيد مما سألته، فسوف يضطر إلى عذاب النار، وبئس المصير.

قوله تعالى:﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ ﴾البقرة: ١٢٧ ، القواعد جمع قاعدة وهي ما قعد من البناء على الأرض، واستقر عليه الباقي، ورفع القواعد من المجاز بعد ما يوضع عليها منها، ونسبة الرفع المتعلق بالمجموع إلى القواعد وحدها. وفي قوله تعالى: ﴿ مِنَ ٱلْبَيْتِ ﴾ تلميح إلى هذه العناية المجازية.

قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ البقرة: ١٢٧ ، دعاء لإبراهيم وإسماعيل، وليس على تقدير القول، أو ما يشبهه، والمعنى يقولان: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآۖ ﴾إلخ، بل هو في الحقيقة حكاية المقول نفسه، فإن قوله:﴿ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ

﴿ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ ﴾ حكاية الحال الماضية، فهما يمثلان بذلك تمثيلاً كأنهما يشاهدان وهما مشتغلان بالرفع، والسامع يراهما على حالهما ذلك ثم يسمع دعائهما بألفاظهما من غير وساطة المتكلم المشير إلى موقفهما وعملهما، وهذا كثير في القرآن، وهو من أجمل السياقات القرآنية ـ وكلها جميل ـ وفيه من تمثيل القصة وتقريبه إلى الحس ما لا يوجد ولا شيء من نوع بداعته في التقبل بمثل القول ونحوه.

وفي عدم ذكر متعلق التقبل ـ وهو بناء البيت ـ تواضع في مقام العبودية، واستحقار لما عملا به والمعنى ربنا تقبل منا هذا العمل اليسير إنك أنت السميع لدعوتنا، العليم بما نويناه في قلوبنا.

قوله تعالى:﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، من البديهي أن الإسلام على ما تداول بيننا من لفظه، ويتبادر إلى أذهاننا من معناه أول مراتب العبودية، وبه يمتاز المنتحل من غيره، وهو الأخذ بظاهر الاعتقادات والاعمال الدينية أعم من الإيمان والنفاق، وإبراهيم (عليه السلام) ـ وهو النبي الرسول أحد الخمسة أُولي العزم، صاحب الملة الحنيفية ـ أجل من أن يتصور في حقه أن لا يكون قد ناله إلى هذا الحين، وكذا ابنه إسماعيل رسول الله وذبيحه، أو يكونا قد نالاه ولكن لم يعلما بذلك، أو يكونا علما بذلك وأرادا البقاء على ذلك، وهما في ما هما فيه من القربى والزلفى، والمقام مقام الدعوة عند بناء البيت المحرم، وهما أعلم بمن يسألانه، وأنه من هو، وما شأنه، على أن هذا الإسلام من الأمور الإختيارية التي يتعلق بها الأمر والنهي كما قال تعالى:﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾البقرة: ١٣١ ، ولا معنى لنسبة ما هو كذلك إلى الله سبحانه أو مسألة ما هو فعل اختياري للإنسان من حيث هو كذلك من غير عناية يصح معها ذلك.

فهذا الإسلام المسؤول غير ما هو المتداول المتبادر عندنا منه، فإن الإسلام مراتب والدليل على أنه ذو مراتب قوله تعالى:﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ ﴾ الآية حيث يأمرهم إبراهيم بالإسلام وقد كان مسلماً، فالمراد بهذا الإسلام المطلوب غير ما كان عنده من الإسلام الموجود، ولهذا نظائر في القرآن.

فهذا الإسلام هو الذي سنفسره من معناه، وهو تمام العبودية وتسليم العبد كل ما له إلى ربه، وهو إن كان معنى اختيارياً للإنسان من طريق مقدماته إلاّ أنه إذا أضيف إلى الإنسان العادي وحاله القلبي المتعارف كان غير اختياري بمعنى كونه غير ممكن النيل له ـ وحاله حاله ـ كسائر مقامات الولاية ومراحله العالية، وكسائر معارج الكمال البعيدة عن حال الإنسان المتعارف المتوسط الحال بواسطة مقدماته الشاقة، ولهذا يمكن إن يعد أمراً إلهياً خارجاً عن اختيار الإنسان، ويسأل من الله سبحانه أن يفيض به، وأن يجعل الإنسان متصفاً به.

على أن هنا نظراً أدق من ذلك، وهو ان الذي ينسب إلى الإنسان ويعدُ اختيارياً له، هو الأفعال، وأما الصفات والملكات الحاصلة من تكرر صدورها فليست اختيارية بحسب الحقيقة، فمن الجائز أو الواجب أن ينسب إليه تعالى، وخاصة إذا كانت من الحسنات والخيرات التي نسبتها إليه تعالى، أولى من نسبتها إلى الإنسان، وعلى ذلك جرى ديدن القرآن، كما في قوله تعالى:﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴾إبراهيم: ٤٠، وقوله تعالى: ﴿ وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾الشعراء: ٨٣، وقوله تعالى: ﴿ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ ﴾النمل: ١٩ ، وقوله تعالى:﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ ﴾ الآية، فقد ظهر ان المراد بالإسلام غير المعنى الذي يشير إليه قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ ﴾الحجرات: ١٤ ، بل معنى أرقي وأعلى منه سيجيء بيانه.

قوله تعالى: ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾البقرة: ١٢٨ ، يدل على ما مرّ من معنى الإسلام أيضاً، فإن المناسك جمع منسك بمعنى العبادة، كما في قوله تعالى:﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا ﴾الحج: ٣٤، أو بمعنى المتعبد، أعني الفعل المأتي به عبادة وإضافة المصدر يفيد التحقق، فالمراد بمناسكنا هي الأفعال العبادية الصادرة منهما والأعمال التي يعملانها دون الأفعال، والأعمال التي يراد صدورها منهما، فليس قوله: أرنا بمعنى علمنا أو وفقنا، بل التسديد بإراءة حقيقة الفعل

الصادر منهما، كما أشرنا إليه في قوله تعالى:﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾الأنبياء: ٧٣ ، وسنبينه في محله: إن هذا الوحي تسديد في الفعل، لا تعليم للتكليف المطلوب، وكأنه إليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾ ص: ٤٥ - ٤٦.

فقد تبيّن أن المراد بالإسلام والبصيرة في العبادة، غير المعنى الشائع المتعارف، وكذلك المراد بقوله تعالى: ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَآ ﴾، لأن إبراهيم وإسماعيل كانا نبيين معصومين بعصمة الله تعالى، لا يصدر عنهما ذنب حتى يصح توبتهما منه، كتوبتنا من المعاصي الصادرة عنا.

فان قلت: كل ما ذكر من معنى الإسلام وإراءة المناسك والتوبة مما يليق بشأن إبراهيم وإسماعيل (عليه السلام)، لا يلزم أن يكون هو مراده في حق ذريته فإنه لم يشرك ذريته معه ومع ابنه إسماعيل إلاّ في دعوة الإسلام وقد سأل لهم الإسلام بلفظ آخر في جملة أخرى، فقال: ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ولم يقل: واجعلنا ومن ذريتنا مسلمين، أو ما يؤدي معناه فما المانع أن يكون مراده من الإسلام ما يعم جميع مراتبه حتى ظاهر الإسلام، فإن الظاهر من الإسلام أيضاً له آثار جميلة، وغايات نفيسة في المجتمع الإنساني، يصح أن يكون بذلك بغية لإبراهيم (عليه السلام) يطلبها من ربه كما كان كذلك عند النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث اكتفى (صلى الله عليه وآله وسلم) من الإسلام بظاهر الشهادتين الذي به يحقن الدماء، ويجوز التزويج، ويملك الميراث، وعلى هذا يكون المراد بالإسلام في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ ﴾، ما يليق بشأن إبراهيم وإسماعيل، وفي قوله: ﴿ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً ﴾ ما هو اللائق بشأن الأمة التي فيها المنافق، وضعيف الإيمان وقويه، والجميع مسلمون.

قلت: مقام التشريع ومقام السؤال من الله مقامان مختلفان، لهما حكمان متغايران لا ينبغي أن يقاس أحدهما على الآخر، فما اكتفى به النبي (صلى الله عليه

وآله وسلم) من أمته بظاهر الشهادتين من الإسلام، انما هو لحكمة توسعة الشوكة والحفظ لظاهر النظام الصالح، ليكون ذلك كالقشر يحفظ به اللب الذي هو حقيقة الإسلام، ويصان به عن مصادمة الآفات الطارئة.

وأما مقام الدعاء والسؤال من الله سبحانه فالسلطة فيها للحقائق والغرض متعلق هناك بحق الأمر، وصريح القرب والزلفى ولا هوى للأنبياء في الظاهر من جهة ما هو ظاهر ولا هوى لإبراهيم (عليه السلام) في ذريته ولو كان له هوى لبدء فيه لابيه قبل ذريته ولم يتبرأ منه لما تبين أنه عدو لله، ولم يقل في ما حكى الله من دعائه ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾الشعراء: ٨٧ - ٨٩، ولم يقل ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ الشعراء: ٨٤ ، بل اكتفى بلسان ذكر في الآخرين إلى غير ذلك.

فليس الإسلام الذي سأله لذريته إلاّ حقيقة الإسلام، وفي قوله تعالى: ﴿أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾، إشارة إلى ذلك فلو كان المراد مجرد صدق اسم الإسلام على الذرية لقيل: أمة مسلمة، وحذف قوله: لك هذا.

قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ إلخ دعوة للنبي (عليه السلام) وقد كان (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: «أنا دعوة إبراهيم».

في الكافي عن الكتاني: قال سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن رجل نسي أن يصلي الركعتين عند مقام إبراهيم في طواف الحج والعمرة، فقال (عليه السلام) إن كان بالبلد صلى الركعتين عند مقام إبراهيم، فإن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ ﴾: مصلى وإن كان قد ارتحل، فلا آمره أن يرجع.

أقول: وروى قريباً منه، الشيخ في التهذيب، والعيّاشي في تفسيره بعدة أسانيد وخصوصيات الحكم ـ وهو الصلوة عند المقام أو خلفه، كما في بعض الروايات ليس لأحد أن يصلي ركعتي الطواف إلاّ خلف المقام، الحديث ـ مستفادة من لفظة من، ومصلى من قوله تعالى:﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ الآية.

وفي تفسير القمي عن الصادق (عليه السلام) في قوله تعالى: ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ

لِلطَّآئِفِينَ ﴾

الآية يعني «نح عنه المشركين».

وفي الكافي عن الصادق (عليه السلام) قال إن الله عزّ وجلّ يقول في كتابه: ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾، فينبغي للعبد أن لا يدخل مكة إلاّ وهو طاهر قد غسل عرقه، والأذى، وتطهر.

أقول: وهذا المعنى مروي في روايات أخر، واستفادة طهارة الوارد من طهارة المورد، ربما تمت من آيات أخر، كقوله تعالى ﴿ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ النور: ٢٦ ، ونحوها.

وفي المجمع عن ابن عباس قال: لما أتي إبراهيم باسماعيل وهاجر، فوضعهما بمكة واتت على ذلك مدة، ونزلها الجرهميون، وتزوج إسماعيل امرأه منهم، وماتت هاجر، واستأذن إبراهيم سارة، فأذنت له، وشرطت عليه أن لا ينزل، فقدم إبراهيم وقد ماتت هاجر، فذهب إلى بيت اسماعيل، فقال لامرأته أين صاحبك؟ قالت له ليس هو هُنا، ذهب يتصيد، وكان إسماعيل يخرج من الحرم يتصيد ويرجع، فقال لها إبراهيم: هل عندك ضيافة؟ فقالت ليس عندي شيء، وما عندي أحد، فقال لها إبراهيم: إذا جاء زوجك، فاقرئيه السلام وقولي له: فليغير عتبة بابه وذهب إبراهيم فجاء اسماعيل، ووجد ريح أبيه، فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟ قالت: جاءني شيخ صفته كذا وكذا، كالمستخفه بشأنه، قال: فما قال لك؟ قالت: قال لي: إقرأي زوجك السلام، وقولي له: فليغير عتبة بابه، فطلقها وتزوج أخرى، فلبث إبراهيم ما شاء الله أن يلبث، ثم استأذن سارة: أن يزور اسماعيل وأذنت له، واشترطت عليه: أن لا ينزل فجاء إبراهيم، حتى انتهى إلى باب إسماعيل، فقال لامرأته: أين صاحبك؟ قالت: ذهب يتصيد وهو يجيء الآن إن شاء الله، فانزل، يرحمك الله، قال لها: هل عندك ضيافة؟ قالت: نعم فجاءت باللبن واللحم، فدعا لها بالبركة، فلو جاءت يومئذ بخبز أو بر أو شعير أو تمر لكان أكثر أرض الله براً وشعيراً وتمراً، فقالت له انزل حتى أغسل رأسك فلم ينزل فجاءت بالمقام فوضعته على شقه فوضع قدمه عليه، فبقى

أثر قدمه عليه، فغسلت شق رأسه الأيمن ثم حولت المقام إلى شقه الأيسر فغسلت شق رأسه الأيسر فبقي أثر قدمه عليه، فقال لها: إذا جاء زوجك فاقرئيه السلام، وقولي له: قد استقامت عتبة بابك فلما جاء إسماعيل (عليه السلام) وجد ريح أبيه فقال لامرأته هل جائك أحد؟ قالت نعم شيخ أحسن الناس وجهاً، وأطيبهم ريحاً، فقال لي كذا وكذا وقلت له: كذا وغسلت رأسه، وهذا موضع قدميه على المقام، فقال إسماعيل لها: ذاك إبراهيم.

أقول: وروى القمي، في تفسيره: ما يقرب منه.

وفي تفسير القمي عن الصادق (عليه السلام) قال: إن إبراهيم كان نازلاً، في بادية الشام فلما ولد له من هاجر إسماعيل اغتمت سارة من ذلك غما شديداً، لأنه لم يكن لها ولد، وكانت تؤذي إبراهيم في هاجر وتغمه، فشكى إبراهيم ذلك إلى الله عزّ وجلّ، فأوحى الله إليه: «مثل المرأة مثل الضلع العوجاء، إن تركتها استمتعت بها، وإن أقمتها كسرتها» ثم أمره: أن يخرج إسماعيل وأمه، فقال: يا رب إلى أي مكان؟ فقال إلى حرمي وأمني، وأول بقعة خلقتها من الأرض، وهي مكة فأنزل الله عليه جبرئيل بالبراق فحمل هاجر وإسماعيل وإبراهيم وكان إبراهيم لا يمر بموضع حسن فيه شجر وزرع ونخل إلاّ وقال إبراهيم: يا جبرئيل إلى ههنا، إلى ههُنا، فيقول جبرئيل لا امض، امض، حتى وافى مكة فوضعه في موضع البيت، وقد كان إبراهيم عاهد سارة أن لا ينزل حتى يرجع إليها، فلما نزلوا في ذلك المكان كان فيه شجر، فألقت هاجر على ذلك الشجر كساء كان معها، فاستظلوا تحته، فلما سرحهم إبراهيم ووضعهم أراد الإنصراف عنهم إلى سارة، قالت له هاجر: يا إبراهيم أتدعنا في موضع ليس فيه أنيس ولا ماء ولا زرع؟ فقال إبراهيم: الله الذي أمرني، أن أضعكم في هذا المكان هو يكفيكم ثم انصرف عنهم، فلما بلغ، كداء، (وهو جبل بذي طوى) التفت إبراهيم، فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٖ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ إبراهيم: ٣٧ ، ثم مضى وبقيت هاجر، فلما ارتفع النهار

عطش اسماعيل، فقامت هاجر في موضع السعي فصعدت على الصفا، ولمع لها السراب في الوادي، فظنت أنه ماء، فنزلت في بطن الوادي، وسعت فلما بلغت المروة غاب عنها اسماعيل، عادت حتى بلغت الصفاء، فنظرت حتى فعلت ذلك سبع مرات فلما كان في الشوط السابع، وهي على المروة نظرت إلى اسماعيل وقد ظهر الماء من تحت رجليه فعادت حتى جمعت حوله رملاً، فإنه كان سائلاً، فزمّته بما جعلت حوله، فلذلك سميت زمزم وكانت جرهم نازلة بذي المجاز وعرفات، فلما ظهر الماء بمكة عكفت الطير والوحش على الماء، فنظرت جرهم إلى تعكف الطير والوحش على ذلك المكان فأتبعتها، حتى نظروا إلى امرأة وصبي نازلين في ذلك الموضع، قد استظلا بشجرة، وقد ظهر الماء لهما، فقالوا لهاجر: من أنت وما شأنك وشأن هذا الصبي؟ قالت: أنا أم ولد إبراهيم خليل الرحمن، وهذا ابنه، أمره الله أن ينزلنا هيهُنا، فقالوا له: أتأذنين لنا أن نكون بالقرب منكم؟ فقالت لهم: حتى يأتي إبراهيم، فلما زارهم إبراهيم في اليوم الثالث قالت هاجر: يا خليل الله إن ههُنا قوماً من جرهم يسألونك: أن تأذن لهم، حتى يكونوا بالقرب منا، أفتأذن لهم في ذلك؟ قال إبراهيم: نعم فأذنت هاجر لهم، فنزلوا بالقرب منهم، وضربوا خيامهم، فأنست هاجر وإسماعيل بهم، فلما زارهم إبراهيم في المرة الثانية نظر إلى كثرة الناس حولهم فسر بذلك سروراً شديداً، فلما تحرك إسماعيل وكانت جرهم قد وهبوا لإسماعيل كل واحد منهم شاة، وشاتين فكانت هاجر وإسماعيل، يعيشان بها فلما بلغ إسماعيل مبلغ الرجال، أمر الله إبراهيم: أن يبني البيت إلى أن قال: فلما أمر الله إبراهيم أن يبني البيت لم يدر في أي مكان يبنيه، فبعث الله جبرئيل، وخط له موضع البيت إلى أن قال فبنى إبراهيم البيت، ونقل إسماعيل من ذي طوى فرفعه في السماء تسعة أذرع، ثم دله على موضع الحجر فاستخرجه إبراهيم، ووضعه في موضعه الذي هو فيه الآن، فلما بنى جعل له بابين باباً إلى الشرق، وباباً إلى الغرب، والباب الذي إلى الغرب، يسمى المستجار، ثم ألقى عليه الشجر والإذخر، وألقت هاجر على بابها كساء كان معها وكانوا يكونون تحته، فلما بنى وفرغ منه، حج إبراهيم وإسماعيل،

ونزل عليهما جبرئيل يوم التروية، لثمان من ذي الحجة فقال: يا إبراهيم قم وارتو من الماء، لأنه لم يكن بمنى وعرفات ماء، فسميت التروية لذلك ثم أخرجه إلى منى فبات بها ففعل به ما فعل بآدم، فقال إبراهيم لما فرغ من بناء البيت:﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم ﴾ الآية قال (عليه السلام): من ثمرات القلوب، أي حببهم إلى الناس، ليستأنسوا بهم، ويعودوا إليهم.

أقول: هذا الذي لخصناه من أخبار القصة هو الذي تشتمل عليه الروايات الواردة في خلاصه القصة، وقد اشتملت عدة منها، وورد في اخبار أخرى: أن تاريخ بناء البيت يتضمن أموراً خارقة للعادة، ففي بعض الأخبار، أن البيت أول ما وضع كان قبة من نور: نزلت على آدم، واستقرت في البقعة التي بنى إبراهيم عليها البيت، ولم تزل حتى وقع طوفان نوح، فلما غرقت الدنيا رفعه الله تعالى، ولم تغرق البقعة، فسمى لذلك البيت العتيق.

وفي بعض الأخبار: أن الله أنزل قواعد البيت من الجنة.

وفي بعضها أن الحجر الاسود نزل من الجنة ـ وكان أشد بياضاً من الثلج ـ فاسودت: لما مسته أيدي الكفار.

وفي الكافي أيضاً عن أحدهما (عليه السلام) قال: إن الله أمر إبراهيم ببناء الكعبة، وأن يرفع قواعدها، ويرى الناس مناسكهم، فبنى إبراهيم وإسماعيل البيت كل يوم ساقاً، حتى انتهى إلى موضع الحجر الأسود، وقال أبو جعفر (عليه السلام): فنادى أبو قبيس: إن لك عندي وديعة، فأعطاه الحجر، فوضعه موضعه.

وفي تفسير العيّاشي عن الثوري عن أبي جعفر (عليه السلام)، قال سألته عن الحجر، فقال: نزلت ثلاثة أحجار من الجنة، الحجر الأسود استودعه إبراهيم، ومقام إبراهيم، وحجر بني إسرائيل.

وفي بعض الأخبار: أن الحجر الأسود كان ملكاً من الملائكة.

أقول: ونظائر هذه المعاني كثيرة واردة في أخبار العامة والخاصة، وهي وإن كانت آحاداً غير بالغة حد التواتر لفظاً، أو معنى، لكنها ليست بعادمة النظير في أبواب

المعارف الدينية ولا موجب لطرحها من رأس.

أما ما ورد من نزول القبة على آدم، وكذا سير إبراهيم إلى مكة بالبراق، ونحو ذلك، مما هو كرامة خارقة لعادة الطبيعة، فهي أمور لا دليل على استحالتها، مضافاً إلى أن الله سبحانه خص أنبيائه بكثير من هذه الآيات المعجزة، والكرامات الخارقة، والقرآن يثبت موارد كثيرة منها.

وأما ما ورد من نزول قواعد البيت من الجنة ونزول الحجر الأسود من الجنة، ونزول حجر المقام ـ ويقال: إنه مدفون تحت البناء المعروف اليوم بمقام إبراهيم ـ من الجنة وما أشبه ذلك، فذلك كما ذكرنا كثير النظائر، وقد ورد في عدة من النباتات والفواكه وغيرها: إنها من الجنة، وكذا ما ورد: أنها من جهنم، ومن فورة الجحيم، ومن هذا الباب أخبار الطينة القائلة: إن طينة السعداء من الجنة، وإن طينة الأشقياء من النار، أو هما من عليين، وسجين، ومن هذا الباب أيضاً ما ورد: أن جنة البرزخ في بعض الأماكن الأرضية، ونار البرزخ في بعض آخر، وأن القبر إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار، إلى غير ذلك، مما يعثر عليه المتتبع البصير في مطاوي الأخبار، وهي كما ذكرنا بالغة في الكثرة حداً ليس مجموعها من حيث المجموع بالذى يطرح أو يناقش في صدوره أو صحة انتسابه وإنما هو من إلهيات المعارف التي سمح بها القرآن الشريف، وانعطف إلى الجري على مسيرها الأخبار الذي يقضى به كلامه تعالى: إن الأشياء التي في هذه النشأه الطبيعية المشهودة جميعاً نازلة إليها من عند الله سبحانه، فما كانت منها خيراً جميلاً، أو وسيلة خير، أو وعاء لخير، فهو من الجنة، وإليها تعود، وما كان منها شراً، أو وسيلة شر، أو وعاء لشر، فهو من النار، وإليها ترجع، قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾الحجر: ٢١ أفاد: ان كل شيء موجود عنده تعالى وجوداً غير محدود بحد، ولا مقدر بقدر، وعند التنزيل ـ وهو التدريج في النزول ـ يتقدر بقدره ويتحدد بحده، فهذا على وجه العموم، وقد ورد بالخصوص أيضاً أمثال قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾الزمر: ٦ ، وقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ ﴾

الحديد: ٢٥ ، وقوله تعالى:﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾الذاريات: ٢٢ ، على ما سيجيء من توضيح معناها إن شاء الله العزيز، فكل شيء نازل إلى الدنيا من عند الله سبحانه، وقد أفاد في كلامه: أن الكل راجع إليه سبحانه، فقال: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴾ النجم: ٤٢، وقال تعالى:﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ﴾العلق: ٨ قال: ﴿ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ التغابن: ٣ ، وقال تعالى: ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴾الشورى: ٥٣ ، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

وأفاد: أن الأشياء ـ وهي بين بدئها وعودها ـ تجري على ما يستدعيه بدؤها، ويحكم به حظها من السعادة والشقاء، والخير والشر، فقال تعالى: ﴿ كُلٌّ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾الإسراء: ٨٤ ، وقال: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ ﴾البقرة: ١٤٨ ، وسيجيء توضيح دلالتها جميعاً، والغرض هيهُنا مجرد الإشارة إلى ما يتم به البحث، وهو أن هذه الأخبار الحاكية عن كون هذه الأشياء الطبيعية، من الجنة، أو من النار، إذا كانت ملازمة لوجه السعادة أو الشقاوة لا تخلو عن وجه صحة، لمطابقتها لاصول قرآنية ثابتة في الجملة، وإن لم يستلزم ذلك كون كل واحد واحد صحيحاً، يصح الركون إليه، فافهم المراد.

وربما قال القائل: ان قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ ﴾ الآية ظاهر في أنهما، هما اللذان بنيا هذا البيت لعبادة الله تعالى في تلك البلاد الوثنية، ولكن القصاصين ومن تبعهم من المفسرين، جاؤنا من ذلك بغير ما قصه الله تعالى علينا، وتفننوا في رواياتهم، عن قدم البيت، وعن حج آدم، وعن ارتفاعه إلى السماء وقت الطوفان وعن كون الحجر الأسود من أحجار الجنة، وقد أراد هؤلاء القصاصون أن يزينوا الدين ويرقشوه برواياتهم هذه، وهذه التزيينات بزخارف القول، وإن أثرت أثرها في قلوب العامة، لكن أرباب اللب والنظر من أهل العلم يعلمون أن الشرف المعنوي الذي أفاضه الله سبحانه، بتكريم بعض الأشياء على بعض، فشرف البيت إنما هو بكونه بيتاً لله، منسوباً إليه، وشرف الحجر الأسود بكونه مورداً للاستلام بمنزلة يد الله سبحانه، وأما كون الحجر في أصله ياقوتة، أو درة، أو غير ذلك، فلا يوجب مزية فيه، وشرفاً حقيقاً له، وما الفرق بين حجر أسود،

وحجر أبيض، عند الله تعالى في سوق الحقائق، فشرف هذا البيت بتسمية الله تعالى إياه بيته، وجعله موضعاً لضروب من عبادته، لا تكون في غيره ـ كما تقدم ـ لا بكون أحجاره تفضل سائر الأحجار، ولا بكون موقعه تفضل سائر المواقع، ولا بكونه من السماء، وعالم الضياء وكذلك شرف الأنبياء على غيرهم من البشر ليس لمزية في أجسامهم، ولا في ملابسهم، وإنما هو لاصطفاء الله تعالى إياهم، وتخصيصهم بالنبوة، التي هي أمر معنوي، وقد كان أهل الدنيا أحسن زينة، وأكثر نعمة منهم.

قال: وهذه الروايات فاسدة، في تناقضها وتعارضها في نفسها، وفاسدة في عدم صحة أسانيدها، وفاسدة في مخالفتها لظاهر الكتاب.

قال: وهذه الروايات خرافات إسرائيلية، بثها زنادقة اليهود في المسلمين، ليشوهوا عليهم دينهم، وينفروا أهل الكتاب منه.

أقول: ما ذكره لا يخلو من وجه في الجملة، إلاّ أنه أفرط في المناقشة، فاعترضه من خبط القول ما هو أردى وأشنع.

أما قوله: إن هذه الروايات فاسدة أولاً من جهة التناقض والتعارض وثانياً من جهة مخالفة الكتاب، ففيه أن التناقض أو التعارض إنما يضرُّ لو أخذ بكل واحد واحد منها، وأما الأخذ بمجموعها من حيث المجموع (بمعنى أن لا يطرح الجميع لعدم اشتمالها على ما يستحيل عقلاً أو يمنع نقلاً) فلا يضره التعارض الموجود فيها وإنما نعني بذلك: الروايات الموصولة إلى مصادر العصمة، كالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والطاهرين من أهل بيته، وأما غيرهم من مفسري الصحابة، والتابعين، فحالهم حال غيرهم من الناس وحال ما ورد من كلامهم الخالي عن التناقض، حال كلامهم المشتمل على التناقض وبالجملة لا موجب لطرح رواية، أو روايات، إلاّ إذا خالفت الكتاب أو السنّة القطعية، أو لاحت منها لوائح الكذب والجعل، كما لا حجية إلاّ للكتاب والسنّة القطعية، في أصول المعارف الدينية الإلهية.

فهناك ما هو لازم القبول، وهو الكتاب والسنّة القطعية وهناك ما هو لازم الطرح، وهو ما يخالفهما من الآثار، وهناك مالا دليل على رده، ولا على قبوله، وهو

ما لا دليل من جهة العقل على استحالته، ولا من جهة النقل أعني: الكتاب والسنّة القطعية على منعه.

وبه يظهر فساد أشكاله بعدم صحة أسانيدها، فإن ذلك لا يوجب الطرح ما لم يخالف العقل أو النقل الصحيح.

وأما مخالفتها لظاهر قوله: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ ﴾ الآية فليت شعري: أن الآية الشريفة كيف تدل على نفى كون الحجر الأسود من الجنة ؟ أم كيف تدل على نفى نزول قبة على البقعة في زمن آدم، ثم ارتفاعها في زمن نوح؟ وهل الآية تدل على أزيد من أن هذا البيت المبني من الحجر والطين بناء إبراهيم؟ وأي ربط له اثباتاً أو نفياً بما تتضمنه الروايات التي أشرنا إليها، نعم لا يستحسنه طبع هذا القائل، ولا يرتضيه رأيه لعصبية مذهبية توجب نفى معنويات الحقائق عن الأنبياء، واتكاء الظواهر الدينية على أصول وأعراق معنوية، أو لتبعية غير إرادية للعلوم الطبيعية المتقدمة اليوم، حيث تحكم: أن كل حادثة من الحوادث الطبيعية، أو ما يرتبط بها أي ارتباط من المعنويات يجب أن يعلل بتعليل مادي أو ما ينتهي إلى المادة، الحاكمة في جميع شؤون الحوادث كالتعليمات الاجتماعية.

وقد كان من الواجب: أن يتدبر في أن العلوم الطبيعية شأنها البحث عن خواص المادة وتراكيبها وارتباط الآثار الطبيعية بموضوعاتها ذاك، الارتباط الطبيعي وكذا العلوم الاجتماعية إنما تبحث عن الروابط الإجتماعية بين الحوادث الإجتماعية فقط.

وأما الحقائق الخارجة عن حومة المادة وميدان عملها، المحيطة بالطبيعة وخواصها وارتباطاتها المعنوية غير المادية مع الحوادث الكونية وما اشتمل عليه عالمنا المحسوس فهي أمور خارجة عن بحث العلوم الطبيعية والاجتماعية، ولا يسعها أن تتكلم فيها أو تتعرض لاثباتها، أو تقضي بنفيها العلوم الطبيعية إنما يمكنها أن تقضي أن البيت يحتاج في الطبيعة إلى أجزاء من الطين والحجر، وإلى بانٍ يبنيه ويعطيه بحركاته وأعماله هيئة البيت أو كيف تتكون الحجرة من الأحجار السود وكذا الأبحاث الإجتماعية تعين الحوادث الإجتماعية التي أنتجت بناء إبراهيم للبيت،

وهي جمل من تاريخ حياته، وحياة هاجر، وإسماعيل، وتاريخ تهامة، ونزول جرهم، إلى غير ذلك، وأما أنه ما نسبة هذا الحجر مثلاً إلى الجنة أو النار الموعودتين فليس من وظيفة هذه العلوم أن تبحث عنه، أو تنفى ما قيل، أو يقال فيه، وقد عرفت: أن القرآن الشريف هو الناطق بكون هذه الموجودات الطبيعية المادية نازلة إلى مقرها ومستقرها من عند الله سبحانه ثم راجعة إليه متوجهة نحوه «أيما إلى جنة أيما إلى نار»، وهو الناطق بكون الأعمال صاعدة إلى الله، مرفوعة نحوه، نائلة إياه، مع أنها حركات وأوضاع طبيعية، تألفت تألفا اعتبارياً اجتماعياً من غير حقيقة تكوينية، قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ ﴾الحج: ٣٧ ، والتقوى فعل، أو صفة حاصلة من فعل، وقال تعالى: ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ ﴾فاطر: ١٠ ، فمن الواجب على الباحث الديني أن يتدبر في هذه الآيات فيعقل أن المعارف الدينية لا مساس لها مع الطبيعيات والاجتماعيات من جهة النظر الطبيعي والاجتماعي على الاستقامة وإنما اتكاؤها وركونها إلى حقائق ومعان وراء ذلك.

وأما قوله: إن شرف الأنبياء والمعاهد والأمور المنسوبة إليهم كالبيت والحجر الأسود ليس شرفاً ظاهرياً بل شرف معنوي ناشئ عن التفضيل الإلهي فكلام حق، لكن يجب أن يفهم منه حق المعنى الذي يشتمل عليه، فما هذا الأمر المعنوي الذي يتضمن الشرافة؟ فإن كان من المعاني التي يعطيها الاحتياجات الاجتماعية لموضوعاتها وموادها نظير الرتب والمقامات التي يتداولها الدول والملل كالرئاسة والقيادة في الإنسان وغلاء القيمة في الذهب والفضة وكرامة الوالدين وحرمة القوانين والنواميس فإنما هي معان يعتبرها الاجتماعات لضرورة الاحتياج الدنيوي، لا أثر منها في خارج الوهم والاعتبار الاجتماعي، ومن المعلوم أن الإجتماع الكذائي لا يتعدي عالم الاجتماع الذي صنعته الحاجة الحيوية، والله عزّ سلطانه أقدس ساحة من أن يتطرق إليه هذه الحاجة الطارقة على حياة الإنسان، ومع ذلك فإذا جاز أن يتشرف النبي بهذا الشرف غير الحقيقي فليجز أن يتشرف بمثله بيت أو حجر، وإن كان هذا الشرف حقيقياً واقعياً من قبيل النسبة بين النور والظلمة، والعلم والجهل،

والعقل والسفه بأن كان حقيقة وجود النبي غير حقيقة وجود غيره وإن كانت حواساً الظاهرية لا تنال ذلك وهو اللائق بساحة قدسه من الفعل والحكم، كما قال الله تعالى: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الدخان: ٣٨ - ٣٩ ،، وسيجيء بيانه كان ذلك عائداً إلى نسبة حقيقية معنوية غير مادية إلى ما وراء الطبيعة فإذا جاز تحققها في الأنبياء بنحو فليجز تحققها في غير الأنبياء كالبيت والحجر ونحوهما وإن وقع التعبير عن هذه النسب الحقيقية المعنوية بما ظاهره المعاني المعروفة عند العامة التي اصطلحت عليه أهل الاجتماع.

وليت شعري: ماذا يصنعه هؤلاء في الآيات التي تنطق بتزيين الجنة وتشريف أهلها بالذهب والفضة، وهما فلزان ليس لهما من الشرف إلاّ غلاء القيمة المستندة إلى عزة الوجود؟ فماذا يراد من تشريف أهل الجنة بهما؟ وما الذي يؤثره معنى الثروة في الجنة ولا معنى للاعتبار المالي في الخارج من ظرف الاجتماع؟ فهل لهذه البيانات الإلهية والظواهر الدينية وجه غير أنها حجب من الكلام وأستار وراءها أسرار؟ فلئن جاز أمثال هذه البيانات في أمور نشأة الآخرة فليجز نظيرتها في بعض الأمور نشأه الدنيا.

وفي تفسير العيّاشي عن الزبيري عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قلت له: أخبرني عن أمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) من هم؟ قال أمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بنو هاشم خاصة قلت: فما الحجة في أمة محمد أنهم أهل بيته الذين ذكرت دون غيرهم؟ قال: قول الله:﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، فلما أجاب الله إبراهيم وإسماعيل وجعل من ذريتهما أمة مسلمة وبعث فيها رسولاً منهم يعني من تلك الأمة يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وردف دعوته الأولى دعوته الأخرى فسأل لهم تطهيراً من الشرك ومن عبادة الأصنام ليصح

أمره فيهم ولا يتبعوا غيرهم، فقال: ﴿ وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾، ففي هذا دلالة على أنه لا يكون الأئمة والأمة المسلمة، التي بعث فيها محمداً إلاّ من ذرية إبراهيم لقوله: ﴿ وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴾.

أقول: استدلاله (عليه السلام) في غاية الظهور، فإن إبراهيم (عليه السلام) انما سأل أمة مسلمة من ذريته خاصة، ومن المعلوم من ذيل دعوته: ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم، أن هذه الأمة المسلمة هي أمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لكن لا أمة محمد بمعنى الذين بعث (صلى الله عليه وآله وسلم) إليهم ولا أمة محمد بمعنى من آمن بنبوته فإن هذه الأمة أعم من ذرية إبراهيم وإسماعيل بل أمة مسلمة هي من ذرية إبراهيم (عليه السلام) ثم سأل ربه أن يجنب ويبعد ذريته وبنيه من الشرك والضلال وهي العصمة، ومن المعلوم أن ذرية إبراهيم وإسماعيل ـ وهم عرب مضر أو قريش خاصة ـ فيهم ضال ومشرك فمراده من بنيه في قوله: وبني، أهل العصمة من ذريتة خاصة، وهم النبي وعترته الطاهرة، فهؤلاء هم أمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في دعوة إبراهيم (عليه السلام)، ولعل هذه النكتة هي الموجبة للعدول عن لفظ الذرية إلى لفظ البنين، ويؤيده قوله: (عليه السلام): ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٦﴾ ﴾إبراهيم: ٣٦ الآية، حيث أتى بفاء التفريع وأثبت من تبعه جزءاً من نفسه، وسكت عن غيرهم كأنه ينكرهم ولا يعرفهم، هذا.

وقوله (عليه السلام): فسأل لهم تطهيراً من الشرك ومن عبادة الأصنام ، إنما سأل إبراهيم (عليه السلام) التطهير من عبادة الأصنام إلاّ أنه (ع) علله بالضلال فأنتج سؤال التطهير من جميع الضلال من عبادة الأصنام ومن أي شرك حتى المعاصي، فإن كل معصية شرك كما مرّ بيانه في قوله تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾الفاتحة: ٧.

وقوله (عليه السلام): وفي هذا دلالة على أنه لا يكون الأئمة والأمة المسلمة، إلخ أي إنهما واحد، وهما من ذرية إبراهيم كما مرّ بيانه.

فإن قلت: لو كان المراد بالأمة في هذه الآيات ونظائرها كقوله تعالى:﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾آل عمران: ١١٠ ، عدة معدودة من الأمة دون الباقين كان لازمه المجاز في الكلام من غير موجب يصحح ذلك ولا مجوز لنسبة ذلك إلى كلامه تعالى، على أن كون خطابات القرآن متوجهة إلى جميع الأمة ممن آمن بالنبي ضروري لا يحتاج إلى إقامة حجة.

قلت: إطلاق أمة محمد وإرادة جميع من آمن بدعوته من الاستعمالات المستحدثة بعد نزول القرآن وانتشار الدعوة الإسلامية وإلاّ فالأمة بمعنى القوم كما قال تعالى:﴿ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمْ ﴾هود: ٤٨ ، وربما أطلق على الواحدة كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ ﴾النحل: ١٢٠ ، وعلى هذا فمعناها من حيث السعة والضيق يتبع موردها الذي استعمل فيه لفظها، أو أريد فيه معناها.

فقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾البقرة: ١٢٨ الآية، والمقام مقام الدعاء بالبيان الذي تقدم -ـ لا يراد به إلاّ عدة معدودة ممن آمن بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وكذا قوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ وهو في مقام الامتنان وتعظيم القدر وترفيع الشأن لا يشمل جميع الأمة، وكيف يشمل فراعنة هذه الأمة ودجاجتها الذين لم يجدوا للدين أثراً إلاّ عفوه ومحوه، ولا لأوليائه عظماً إلاّ كسروه وسيجيء تمام البيان في الآية إن شاء الله فهو من قبيل قوله تعالى لبني إسرائيل: ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾البقرة: ٤٧ ، فإن منهم قارون ولا يشمله الآية قطعاً، كما أن قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾الفرقان: ٣٠ ، لا يعم جميع هذه الأمة وفيهم أولياء القرآن ورجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله تعالى.

وأما قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ البقرة: ١٣٤ ، فالخطاب فيه متوجه إلى جميع الأمة ممن آمن بالنبي، أو من بعث إليه.

إذا رجعنا إلى قصة إبراهيم (عليه السلام) وسيره بولده وحرمته إلى أرض مكة، وإسكانهما هناك، وما جرى عليهما من الأمر، حتى آل الامر، إلى ذبح إسماعيل وفدائه من جانب الله وبنائهما البيت، وجدنا القصة دورة كاملة من السير العبودي الذي يسير به العبد من موطن نفسه إلى قرب ربه، ومن أرض البعد إلى حظيرة القرب بالإعراض عن زخارف الدنيا، وملاذها، وأمانيها من جاه، ومال، ونساء وأولاد، والانقلاع والتخلص عن وسائس الشياطين، وتكديرهم صفو الإخلاص والإقبال والتوجه إلى مقام الرب ودار الكبرياء.

فها هي وقائع متفرقة مترتبة تسلسلت وتألفت قصة تاريخية تحكي عن سير عبودي من العبد إلى الله سبحانه وتشمل من أدب السير والطلب والحضور ورسوم الحب والوله والإخلاص على ما كلما زدت في تدبره إمعاناً زادك استنارة ولمعاناً.

ثم: إن الله سبحانه أمر خليله إبراهيم، أن يشرع للناس عمل الحج، كما قال: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ الحج: ٢٧ ، وما شرعه عليه السلام وإن لم يكن معلوماً لنا بجميع خصوصياته، لكنه كان شعاراً دينياً عند العرب في الجاهلية إلى أن بعث الله النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وشرع فيه ما شرع ولم يخالف فيه ما شرعه إبراهيم إلاّ بالتكميل كما يدل عليه قوله تعالى:﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ الأنعام: ١٦١ ، وقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ الشورى: ١٣ .

وكيف كان فما شرعه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من نسك الحج المشتمل على الإحرام والوقوف بعرفات ومبيت المشعر والتضحية ورمى الجمرات والسعى بين الصفا والمروة والطواف والصلاة بالمقام تحكي قصة إبراهيم، وتمثل مواقفه ومواقف أهله ومشاهدهم ويا لها من مواقف طاهرة إلهية القائد إليها جذبة الربوبية والسائق نحوها ذلة العبودية.

والعبادات المشروعة ـ على مشرعيها أفضل السلام ـ صور لمواقف الكملين من

الأنبياء من ربهم، وتماثيل تحكي عن مواردهم ومصادرهم في مسيرهم إلى مقام القرب والزلفى، كما قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ الأحزاب: ٢١ ، وهذا أصل.

وفي الأخبار المبينة لحكم العبادات وأسرار جعلها وتشريعها شواهد كثيرة على هذا المعنى، يعثر عليها المتتبع البصير.

التعليق على ما مرّ من التفسير نقول:

بشكل عام هناك إجماع ضمني على معنى وتفسير هذه الآيات المباركات في هذه الفقرة، وإن اختلفت الألفاظ والكلمات المعبرة عن ذلك.

وقد تميز بشكل استثنائي في هذه الفقرة العلامة الطباطبائي، حيث فنّد وعالج العديد من الإشكالات التي أثيرت أو قد تثار حول بناء الكعبة المشرفة، ومقام إبراهيم (ع)، ودعاؤه عليه السلام بالأمن والرزق، والذرية المؤمنة الطاهرة والصالحة، كما ببعثة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).